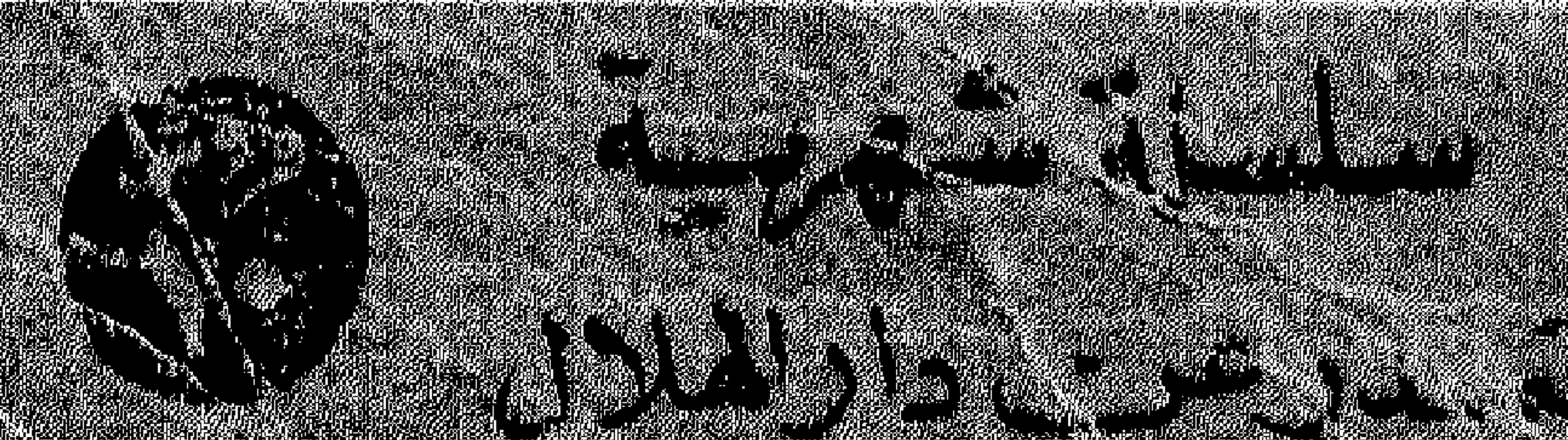
كتاب الهلال

سارة

بقلم

عباس محمود العقاد

طبعة خاصة مزدانة بالرسوم



٨٦

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٧ ــ ذو القعدة ١٣٧٧ ــ يونية ١٩٥٨

No. 87 — Juin 1958

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ــ الامريكتين ٥ر٥ دولارت ــ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

سارة

بقلم

عباس محمود العقاد

طبعة خاصة مزينة بالرسوم



سـارة

أهو أنت؟

مضت خمسة اشهر قبل ان يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشيا على قدميه

وليس الشارع مقفرا أو مخيفا ، لأنه محاط بالعمار مزدحم في جوانبه بالسابلة والسكان

وليس هو بالبعيد عن طريقه ، لأنه يوشك أن يحتاج اليه في ذهابه وايابه الى حيث يقيم في ضاحية المدينة

ولكنه كان شارعا يلتقيان فيه عند ذهابهما الى دار الصور المتحركة ، ثم يلتقيان عند خروجهما منها

وكانا يجلسان اذا دخلا تلك الدار في مكانين متجاورين ، ولكنهما لايدخلان اليها ولا يخرجان منها متجاورين . بل يرسل هو الى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين في مكان قلما يتغير . ثم يلقاها في ذلك الشارع ، فتأخذ احدى التذكرتين وتسبقه الى الدار ، ويظل هو بضع دقائق في بعض الاندية العامة ، ثم يلحق بها الى المكان المعروف

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية اذا أحست منه اعجابا بها أو ثناء عليها ، وتسأله في ذلك أسئلة ذكية خبيثة لاتسهل المغالطة في جوابها ، الا على سبيل المزاح والمداعبة

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماما بالروايات التي تظهر فيها احدى الممثلات :

ـ اذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة ، أتقبلها منها ؟

فعلم أن الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب ، وعمد الى العبث والمراوغة

قال :

ـ وهل من الأدب أن أرفض قبلة تعرضها سيدة ؟

قالت :

ـ دعنا من حديث الأدب فما عن هذا أسأل . . . انا اسألك عن دخيلة نفسك ، أسألك عن رغبتك ، فهل ترحب بتلك القبلة اذا وجدتها ؟

فعاد ثانية الى العبث والمراوغة . وطفق يقول :

ـ أما ان كنت أمثل معها على الستار الابيض ، فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها ، تلك واجبات الفن يا صديقتى ، ولا تتم الفنون الا ببعض التضحية !

قالت :

ـ أو تضحية هى ؟

قال :

ـ نعم كل قبلة غير قبلة المرأة التى يحبهـا الرجل هى تضحية . بل هى ـ ان شئت ـ سخرة !

فرضيت وهى تعلم أنه يغالط ويراوغ فى الجواب ، وأحبت أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة اذا أتيح له تقبيلها ، وهى تعلم أنه لا يقول صدقا ولا يعمد الى الصراحة ! وقالت وهى تضحك :

ـ لقد نجوت ! آن قبلة تتمناها لهى خيانة الضمير ،

لا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع الا التنفيذ

واذا خرجا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيرا ماكانت تمد يدها الى مفكرته فى جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة ، أو تناسب الرياضة التى خرجا لها ان كانت لها مناسبة ملحوظة

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجلة : « هل اعجبتك رواية المرأة المترجلة ؟ أما أنا فسأكون لك امرأة فقط »

وكتبت مرة اخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة : « أرجو أن لا ترى المرأة المحتالة الا فى السينما. أما فى الحياة فحسبك المخلصة : فلانة »

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهى تذكر كل كلمة قالها فى التعليق عليها أو فى انتقادها . فاتفق يوما انهما حضرا الصور المتحركة فى احدى الضواحى الصيفية ، حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة أو سنتين من عرضها فى المسارح الكبيرة ، وشهدا هناك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض من فشله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة فى اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب ، ويظل يتساقط من هنا وهناك الى مابعد اطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة

فقال لها :

ـ أليس الأحسن والابرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الاطباق ؟

فضحكت طويلا وقالت :

ـ أتذكر ؟ انك قلت هذه الكلمة بعينها عند ما شهدنا هذه الرواية في البلد للمرة الأولى !

ولا يندر أن يسمع منها اثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات متبدرة تكشف بها ـ على غير قصـــد منها ـ عن اعمق أعمـــاق المرأة ، وتهـــزأ فيها بالرياء الانثوى الذى يبـــدو فى خجل المرأة وامتناعها

من ذلك أنهما شهدا رواية من روايات الثورات يبدو فيها طريد جريح مهدد الحياة بجراحه ومهدد الحياة بمطاردة اعدائه ، وقد لاذ بأحد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتموا أمره وتعهدته بالعلاج فتاة دون العشرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام . فمالت اليه شفقة ثم مالت اليه حبا ، ثم تمالك نفسه بعد طول العلاج ، حتى انفردا فى بعض الجلسات فبلغ من سرورها به وسروره بها أن نظر اليها ونظرت اليه ، وعيونهما تومض بالمحبة ، ثم اعتنقا فى قبلة طويلة جارفة . . .

وكان بين المتفرجين على مقربة منهما سيدة نصف فى نحو الأربعين من عمرها ، وفتيات ناهدات فى مثل ســـن الفتاة . فصاحت السيدة :

ـ انظرن الى الخائن ! انه خدعها !

فمالت صاحبتنا وهمست ساخرة :

ـ أتقول خدعها ؟

انه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها !

وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئا اكثر من

ملهى الفراغ وموعد اللقاء : كانت محور حياتهما الغرامية ، وهل كانت لهما من حياة فى ذلك الحين غير الحياة الغرامية ؟ وكانت ملتقى الذكريات والعواطف ووسيلة التقارب والتفاهم فيما يشعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين والمحبات ، وكانت ذخيرة من المناظر التى يقترن كل منظر منها بكلمة ، أو بخاطرة ، أو بمناقشة ، أو بأمنية يملكان تحقيقها أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال

فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما الى تلك الدار كانت كل خطوة فى تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام ، وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصدا من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الامور وأهون المحذورات

ثم مضت الأشهر وخيل الى صاحبنا أنه لم يعد يخشى أو يذكر ، فاجترأ على العبور بالطريق مرة بعد مرة ، وعبر بها ثلاث مرات أو أربعا على الأكثر ، وكانت الرابعة هى التى فوجىء بها هذه المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان

انه لم ير صاحبته بعد اللقاء الأخير فى أثناء تلك الاشهر الموحشة . انه اجتنب الاماكن التى عساه أن يراها فيها ، ولزم بيته فى معظم الايام وقد علم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصد اليه الا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات ، ان لم يعاوده ببعض ما يسوؤه أن يراه

فلما عبر الشارع المهجور تلك الليلة مطرقا كعادته حين يسير على غير قصد الى مكان معلوم — سمع من جانبه صوتا يناديه : صوتا يعرفه بين الف صوت ، بل بين جميع ما خلق

الله من الاصوات والأصداء : صوتها هى بعينها يهتف به :
ـ أهو أنت ؟

أهو أنت ؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفغار الهاوية تحت السفينة فى البحر اللجى من اثر عاصفة أو زلزال، وقبل أن يجيب ذلك السؤال الذى لا يحتاج الى جواب ، وفى أقل من رجع الصـدى بل فى اقل من اللمحة الخاطفة التى انقضت بين ارتفاع رأسه اليها والتقاء نظره بنظرها ـ هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التى لا يوجد لها اسم فى اللغات الانسانية ، لان اللغات الانسانية لا تستطيع أن تضع اسما لألوف من النقائض والمفاجآت التى يجتمع فيهـا الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز ، وتريد فيها النفس أن تقف وتريد فيها القدم أن تسير ، بل تريد فيها النفس أن تقف ، لانها لاتقوى على أن تريد

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارىء ـ لعله كان يعرف ما هو مقبل عليـه ويستعيد فى نفسـه شـيئا من ذلك العـزم الذى اعانه على القطيعة ، وامده بدواعى الاصرار عليها ، كلما جنح الى اللين والاغضاء والمغالطة

ولكنه أخذ على حين غرة

فوقف هنيهة لا يدرى ما يقول

ووقفت هى ايضا لا تدرى ما تقول ، وكأنمـا ندمت على الكلمة لأنها لم تسمع لها جوابا سريعا،ولم تزل تخشى ما يجىء به ذلك الجواب . فاومأت الى مركبة قريبة واقفة بين مركبات كثيرة ،واذا بهما يسيران معا الى تلك المركبة ، فتجلس فيها

ويجلس هو الى جانبها وهى تقول :

ــ هذا خير من ان يرانا الناس مشدوهين كالصنمين !

والواقع ان الناس التفتوا فملا وجعل بعضهم ينظر الى بعض ويتهامسون

فقال لها :

ــ صدقت ... هو خير !

ثم صاح الحوذى :

ــ الى أين يا بك ؟

فلما لم يسمع ردا من « البك » عاد يسأل :

ــ الى اين يا سيدتى ؟

فهمست صاحبتنا :

ــ ألا تقول للحوذى الى أين ؟

فأجابها وهو يوجه خطابه الى الحوذى :

ــ الى حيث تشاء !

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب ، وعلى اللقاء ، وعلى السؤال لأنها كانت تنتظر من صاحبها لهفة على مكان من أماكن الرياضة المعهودة التى ألفا أن يترددا عليها .. فجلست صامتة

وجلس كذلك صامتا

وطال الصمت ... لا لأنه كان يريده ، أو لأنه كان يأبى الكلام ، ولكن لانه كان يفتش من كل كلام فى الدنيا فاذا هو يهرب ... أو يستعصى ولا ينقاد

كان الكلام الذى يريده هو التواعد الى غد حيث يلتقيان فى المنزل ، وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام

ولكن هذا هو بعينه الكلام الذى كان لا يريده !

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء ، ومانع الخوف من تجديد ما فات ، ومانع الشك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسى أن تلقى به كلامه فى دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف

وطال الصمت ، وقالت وكأنما تناجي نفسها :

ـ يحسن بنا أن نقف هنا للنزول

واعترف هو فى طوية ضميره انه لا يريد أن تنزل قبل أن يقول لها شيئا أو يسمع منها شيئا

واعترفت هى فى طوية ضميرها أنها لا تريد ان تنجز تهديدها ولا تريد أن تبرزه فى صورة التهديد • لأنها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدى ... أو هو تركها تنزل وحدها ، وان كان يود استبقاءها فى الحقيقة •

ولعلها أخطأت في حسابها هذه المرة ، فان صاحبها بعد أن جلس الى جانبها ، وبعد أن أحس حرارة جسمها ، وبعد أن لمس بضاضة معاطفها ، وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهى تميل اليه تنتظر كلامه ، وبعد أن غاص فى تلك الغيبوبة التى استنام اليها كما يستنيم الساهر البعيد العهد بالنوم الى أول ضجعة على الفراش ، وبعد أن أصبح هو وعزيمته شيئين منعزلين بينهما من البعد ما لا ينجع فيه دعاء ولا استحضار ... بعد هذا كله لعلها كانت لا تخاطر كثيرا اذا

هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم

ولكنها لم تهدد ولم تنزل ... بل صاحت غاضبة :

ـ ما بالك لاتنطق ؟ أمعقـود اللسـان وأنت لك لســان كالثعبان ؟

وربما احب أن ينفى عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام فى مفاجأة اللقاء

فقال لها وهو يتلعثم :

ـ أين كنت ؟

قالت :

ـ فى السينما !

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول :

ـ مع من ؟

فأجفلت مقطبة وأجابته بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب :

ـ أولا اذهب الى السينما الا مع أحد ؟ الا تزال فى ضلالك القديم ؟

قال :

وماذا بدا لى من الهـدى الجـديد فأعدل عن الضــلال القـديم ؟ ولماذا صرفت كلامى الى ما فهمت ؟ الا يجـوز أن تذهبى الى السينما مع سيدة ؟ فلماذا تستغربين السؤال ؟

قالت :

ـ لأنك غريب فى هذه الليلة . ماذا أقول ؟ لأنك غريب فى كل حين !

ثم اقتضبت على غير انتظار وهى تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع :

ـ هذا شرح يطول ، ونحن نهيم فى الشوارع على غير مقصد، فأولى بنا أن نرجىء الحديث الى وقت آخر . ألا ألقاك غدا فى المنزل ؟ . . غدا فى الساعة الخامسة ، سمعت ؟

قالت ذلك وهى تستوقف الحوذى وتهم بالنزول عند محطة الترام

وأنها لتنزل من المركبة اذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهى تنظر اليه أو تنظر الى غير وجهة

فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس على مفتاحها وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها ، ولكنه شعر به وشعر بنفسه فى تلك اللحظة غريقا بعيدا كما يشعر بالجسد الغريق الهامد يراه فى أعماق الاوقيانوس الهدار . وقال وهو أيضا نادم :

ـ غدا فى المنزل !

قالت فى الساعة الخامسة موعدنا القديم

وافترقا على موعد اللقاء


موعد

فارقته على موعد اللقاء فى الساعة الخامسة «موعدنا القديم!» وكأنما كانت كلمة الموعد « القديم » وحدها طلسما ساحرا نقله من حالة الى حالة ، وأخرجه من الحذر والتردد الى الراحة والاستبشار ... فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم ير أمامه الا « الموعد القديم » بل « المواعيد القديمة » فى كل يوم ، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء ، وذكريات لاتزال مرتسمة فى الذهن، سارية فى الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الاعضاء

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف احدا ، ويكاد لا يعرفه من كان يراه قبل ذلك بساعة او اقل من ساعة

وأول ما خطر له أن يدخل فى ذلك المساء دار « الصور المتحركة » التى كانا يلتقيان فيها معظم الأوقات ، كأنها باب كان موصدا أمامه ففتح على مصراعيه ، أو فاكهة ممنوعة رفع منها المنع والحرمان

ومن عجائب العاطفة الانسانية أنها أبدا مولعة بالمراسم والشعائر ، فلا تستولى على النفس حتى ترسم لها «طقوسا» وعادات تذكر الانسان بطقوس العقائد والعبادات .

فلما خطر له أن يقصد الى دار « الصور المتحركة » أو إلى

ذلك « الحرم » الذى كان ممنوعا حتى ذلك المساء ، لم يكتف بتذكرة واحدة . بل طلب له تذكرتين اثنتين ، وهو لا ينوى أن يصطحب احدا ، ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم

وقضى الوقت الباقى الى الساعة التاسعة فى قلق واشتياق كأن موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور

ثم بدأ عرض الصور وهو يزعم لنفسه أنه يشهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات ، وليس فى خلده من ذلك شيء الا كما يرى الناعس المهوم ما حوله من الأشباح ، أو يسمع ما حوله من الاصداء ... كل ما يثبت فى خلده منها أنها أشباح وانها اصداء !

ثم جاءت فترة الاستراحة فاذا الفتى الذى يبيع هنـــاك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه فى دهشة واستفهام يسأله:

ــ أكنت مسافرا يا بك ؟

وقبل أن يسمع الجواب أسرع فقال :

ــ أن السيدة كانت هنا فى حفلة الغروب

واذا صاحبنا يسأله وهو لا يقصـد السؤال ، ولو فكر فى سؤاله قبل أن يلفظ به لكتمه وأخفاه :

ــ أكانت وحدها ؟

وخيل اليه أنه يلاحظ فى نظرات البائع ولهجته تلميحا خبيثا يقول له ما لا يريد أن يعرفه ، ولا يريد أن يجهله فى الوقت نفسه . فسلبته تلك الملاحظة كل طمأنينة الى ماسيقوله البائع من خبر مقبـول أو خبر مرفوض ، وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشيء

ولكن البائع لم يزد على أن هز رأسه وقال :

ـ لا أدرى ... كانت الى جانبها سيدة ... ولعلها كانت معها

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع السؤال الاول وهو يغالط نفسه ، ويحسب انه يتهكم أو يريد من البائع أن يحسبه متهكما غير جاد فى مطاولة الحديث :

ـ جانبها ؟ أى جانب ؟ أن للانسان جانبين لا جانبا واحدا كما تعلم

وهنا ظهر من البائع الخبيث انه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع . فقد عودته صناعته أمثال هذه المواقف وأمثال هذه الأسئلة وأمثال هذه الشكوك . فلم يفته أن « البك » يستطلع ويرتاب ... ومن يدرى ؟ فلعله كان يرى بعينيه ما يدله على أن البك جدير بالاستطلاع والارتياب !

فتمهل قليلا وقال : « كان الى جانبها الآخر هذا الممر » واشار بيده الى احد الممرات التى بين الصفوف

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا ، واحب أن يعتقد ان كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك ، لامجرد الشك الذى خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة فى ذلك اليوم

الا انها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت فى طرفة عين ، واذا بصاحبنا يناجى نفسه ذلك النجاء الذى كان غائبا عن خاطره منذ فترة وجيزة . ياعجبا ! انى لأجتنب هذه الدار كانها تجمع شياطين الارض كلها فى حيز واحد ، وهى تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجبا لاجتنابها .. لو كان

قلبها خاليا من هوى آخر لما استطاعت ذلك ولفعلت كما كنت افعل أنا الى هذا المساء . . والأغلب الارجح أن هذا البائع يعلم من خفية الامر اكثر مما يبوح به أو يريد ان يبوح . الا ترى الى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه ؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء

وعاد صاحبنا يتساءل فى ضميره : ماعنده ؟ أهكذا جزمت سريعا بأن « عنده » سرا وانه يستطيع ان يبوح بأكثر مما قال ! الا يجوز أنه لم يعرف سرا على الاطلاق ، وان ماحسبته غمزات ونغمات مريبة فى صوته انما هى عادة هذه الطبقة عندما تتحدث لرجل عن امرأة ، أو عندما تتحدث فى كل شأن بين رجال ونساء

ــ يجوز !

ــ لايجوز !

وهكذا انطلقت فى مخيلة صاحبنا أوهام واشباح لاعداد لها فى تلك الساعة القصيرة ، ولا يقاس اليها كل ماشهدته تلك الدار من الأوهام والاشباح ومن المبكيات والمضحكات

ولم ينقذه مما استغرق فيه الا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الأصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة وكان يقدر انه لن ينام

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرا لما عمل فى اليقظة الا الذى عمله وهو نائم . حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب

وتصطخب ويتبع بعضها بعضا ، ولا تميل الى جانب الرضا لحظة حتى تعود الى جانب الوسواس والمنغصات

ثم استيقظ فى الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقا غريبا يجهل ما عنده من نية وشعور :

ـ اتنوى أن تنتظرها فى الموعد ؟

فما هو الا أن وضح السؤال فى خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه ، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار

وهنا دارت فى سريرة هذا الرجل ـ هذا الرجل الواحد ـ مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ماتدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله الى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ماهو قادر عليه فى هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح :

ـ كيف لاتنتظرها ؟ اتمطى سيدة موعدا ولا تنتظرها فيه ؟ اهذا يليق برجل ؟

ـ ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات ولا زائرة منزائرات المجالس العامة اللواتى تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف • ان هذه القيود لاحساب لها فى العلاقات التى انطلقت من جميع القيود

ـ ولكن مم عساك ان تخاف ؟ انتظرها وقل لها انك لاتريد أن تراها بعد هذا الموعد !

ـ عجبا • • اتجهل ما أخافه ؟ أتجهل تلك الآلام التىلاحيلة

فيها لمخلوق ولاتزال تبتدىء من حيث تنتهى ، وتنتهى من حيث تبتدىء ، لأنها تبتدىء وتنتهي من الشكوك ، وليس للشكوك قرار حاسم ، ولا مقطع بيقين ؟

أتجهل تلك الاشباح اللئيمة التى تطل عليك فى اطيب اوقاتك فتنغص عليك كل لذة وتكدر عليك كل صفاء ؟

ــ لكن علام كل هذه الشكوك التى ليس لها من اول ولا آخر .. اصرفها عنك مرة واحدة وافرض أسوأ الفروض ــ وقدر أنها تخونك وأنك تلهو بها فى ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك اخلاص ولا خداع

ــ أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التى كانت كل نساء الأرض عندى ، وكل مايخفق له قلبى ، فتصبح بين مساء وصباح وهى لهو ساعة ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على انسان ؟ أو تضمن اذا أنا اتخذتها لهوا ومتاعا أن لايتمكن اللهو ويطيب المتاع ، واننا لاننكفىء بعد أيام او بعد اسابيع الى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الأليم ؟ لا لا هذا محال باطل ، واستدراج لايستر ماوراءه وتزوير لاارضاه

ــ لكن الفتاة مليحة مع ذلك .. تصور بضاضتها وهى جالسة الى جانبك فى المركبة ، وانفاسها وهى تهب على خدك فتسرى فى جميع أوصالك ، وقبلتها وهى ترتعش على شفتيك ، وحلاوتها وقد زادها النحول فى هذه الأشهر حلاوة على حلاوة ، ونحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كله بين يديك فى مدى بضع ساعات وأنت مع هذا تفكر ... تفكر فيماذا ؟ فى نبذ هذه النعمة التى تسعى اليك ، وفى الخوف والجبن والفرار !

ـ هذا حق كله . ان الفتاة المليحة ولا نكران ... ولكن !

ـ ولكن ماذا ياأخى .. ! انتظرها واله بها ولا تدعها لغيرك ينال منها مالا تنال .. ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء .. فاذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل ، والا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور

ـ عزيمتى ؟ وأين هى عزيمتى ان كانت لا تنجدنى فى هـذا النزاع العنيف ؟

ـ انها تنجدك فى كل حين ولكنك أنت لا تريدها الآن ... لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى أردتها غدا فهى حاضرة لديك ، وهى فى كل ساعة طوع يديك .. ومع هذا الا يشوقك أن تستمع الى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ؟ الا يجوز ان تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر وتصف لك من حالها فى غيابها عنك مايهمك ولو من بابالدراسة والاستقصاء ؟

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة فى هذا الحوار الحثيث ولا قرار

وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار

وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على أصح التعبيرين . غير أن الذى حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيهـا على ان الانسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم

ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وانما كان معهما ثالث لايدريان به وهما ماضيان فى الاقناع والانكار

ففى الساعة الرابعة وبضع دقائق ـ والحوار على أشده بغير قرار ـ وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج الى حيث لا يعلم الا انه خارج من المنزل وكفى . ومضى فى طريقه مهرولا كمن يمضى الى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها ، وركب سيارة لم يعرف الى أين تحمله الا بعد أن استقر فيها ، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود

ثم ساوره القلق ودلف الى منزله بالسرعة التى فارقه بها ، واستحالت كل حيرته قبل الخروج الى حيرة أخرى ، أو شوق آخر : وهو أن يعرف ما حدث فى غيابه بجميع تفصيلاته . هل حضرت فى الساعة الخامسة ؟ أو حضرت قبلها أو بعدها ؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وما بدا على وجهها وهى تصدم بهذه « المقابلة » ؟ واذا كانت لم تحضر فما الذى عاقها عن موعدها ؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ؟ هل ضربته وهى تنوى أن تخلفه من اللحظة الاولى ، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها ؟

وانه ليفتح الباب بالمفتاح الذى فى جيبه ولا ينتظر ان يدق الجرس كعادته فى الاوقات الاخرى ، اذا بالخادم يصادفه وراء الباب ، وهو يظن ـ بل يرجو ـ أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت فى غيبته ولا تزال فى انتظاره ، ويغلو به هذا الوهم حتى يعجل بالالتفات الى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التى تنتظره فيها

ولم تمض فى ذلك الا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرا من الاخبار يستحق أن يقال ، ويساوى تلك اللهفة التى تمتلج فى صدر صاحبنا

فاسرع صاحبنا سائلا :

ـ الم تحضر الى هنا السيدة ؟ الم تقل شيئا ؟

فقال الخادم فى فتور غريب :

ـ لا أعلم !

فانفجر صاحبنا غاضبا :

ـ كيف لا تعلم ؟ ألم تكن هنا ؟ هل هى أوصتك بأن تقول ذلك ؟

قال الخادم وفى صوته احتجاج من يستغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهام :

ـ يا سيدى قلت لك لا أعلم ، لأنك نزلت من هنـا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد فى سائر الايام

فاشتعل صاحبنا غيظا ، وهم أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من امامه فتبعه الى باب الخدم ، وهو يعلنه بالطرد وأن لا يعود ليريه وجهه مرة اخرى . ولم يصفح عنه الا بعد ثلاثة ايام ، وبعد ان شفع له أن الرجل معذور لانه لم يأمره بالبقاء فى المنزل ، وقد انساه أن يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولا به من حوار



الاستاذ العقاد فى شبابه

الشكوك

من النادر جدا أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لايسرعان الى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، ان لم يكن حبا أو حنينا أو رغبة فى المتعة والسرور،فعلى الاقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما فى الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل : هل أحبت غيره ؟ وهل أحب غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهل سلا ؟ وبماذا يشعران فى الحب الجديد ؟ أو ماذا بقى عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ واشباه ذلك من الاسئلة التى يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه فى أشد الحاجة الى الوقوف على جوابها . فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين

فاذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما فى اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء ، فلا بد أن يكون بينهما شبح قائم من الآلام والاكدار يغطى على جميع المشوقات والمرغبات ، ويعكس الفضول والاستطلاع فيستحيل الى صمم ونفور ويصبح كلّ شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة الى ذلك الشبح المرهوب

وهكذا كانت الشكوك التى تمثلت لصاحبنا فانساق بغير وعى ولا ارادة الى اجتناب الموعد ، والفرار من المنزل ، والهزء بكل اغراء وتشويق ينبعث فى أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم

كانت شكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الارض وكل حلاوات الحياة : كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق حتى لامنفس ولا مهرب ولا قرار،وكثيرا ماينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة فى مداعبة الفريسة قبل التهامها ، فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الارض والسماء ، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل فى المكان ، ووجب البقاء حيث أنت فى ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء فى الانتقال

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفا بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا الى اليمين ولا الى اليسار، ولا الى البراءة ولا الى الاتهام .. بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة فى هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب . وهكذا الى غير نهاية والى غير راحة ولا استقرار

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية ، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى . فهى من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحدا أو حركة واحدة لايختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران ،وهو فى تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق

الاحتمالات الكثيرة ، فلا يجوز عنده احتمال راجح الا جاز عنده في اللحظة نفسها احتمـال راجح في قوته ووزنه وجوازه ، ولا يدفع هذا أو ذاك الا بدافع حاسم لا تردد فيه

ألم لا نظير له في آلام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة في الاحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الاب المستريب الذي يشك أفجع الشك في وليد منسوب اليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذي يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء ؟ هل هو رمز الحب والعطف والصـدق والوفاء ، أو هو رمز الخداع والخيـانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع في عطفه عليه ، أو هو مخدوع في نفوره منه ؟ وكيف يفصل في هـذين الخداعين ؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما ، وكلاهما لا يطاق

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التي هو مستغرق فيها ، ويحاول في اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود اليها . ثم لا يدري في أي المحاولتين هو مصيب . ولابد أن يدري ، وهيهات لا سبيل الى الدراية بحال !

واذا كان بعض الشكوك في العشق من وساوس الاوهام ، فمما لا نزاع فيه أن العاشق أصدق الناس في شكوكه حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموسـة ، لانه يعرف صاحبته معرفة لا يخفى معها عارض من عوارض التغير ، ولا لمحة من لمحات العين ، ولا همسة من همسات الضمير : يعرف نظراتها ويعرف كلماتها ، ويعرف ماتقوله عن سجية وماتقوله بتكلف واصطناع ، ويعرف أن بعض الخشونة ادل على الحب والاخلاص من بعض المجاملة ، ويعرف نفسها وكيف تستتر

فيهـا الخفايا ، ويعرف جسـدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات

وقد يسأله من يسأله كيف خامرتك الشكوك فيضحك من نفسه أن يجيبه بما يلوح له أو يطلعه على بعض تلك الاسباب، وقد يؤثر فى معظم الاحيان أن يكتمها ويموهها على أن يفضى بها الى انسان كائنا ما كان

وبعد فهل الغدر فى الحب مستحيل ؟

كلا ! ليس هو بمستحيل ولا مما يقـارب المستحيل . وليس صـاحبنا بالذى يصدق ذلك ولا صـاحبتنا بالتى تصدقه وتدعيه

لقد اعترفت له بعـلاقتين سـابقتين : أحداهما متينـة مستحكمة طويلة والاخرى هوجاء حامية سريعة ، واحداهما مع كهل يقارب الاربعين والاخرى مع فتى فى نحو الخامسـة والعشرين . واحداهما صيدت فيهـا ولـكن على غير كره منها ، والاخرى كانت هى فيها الصائدة وهى التى نصـبت الشباك ، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس الحانقون فأطاروه !

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البـارعة لتلقى عشيقها الاول ، وبما كانت تعمى به على من حولهـا حتى لا يرتابوا فى أمرها ، واذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان

واعترفت له بالردود المفحمـة التى كانت تدبرها لترغم المتهمين على السكوت

واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها ،

فقالت له انهــا لم تكن على يقين من حب عاشقها الاول ، ولم تكن تبالى أن يحبها اكتفاء بعلمها انها هى تحبه . وذهبت فى امتهان كرامتها ــ وهى مغرورة بفتنتها وامتيازها ــ الى حد من الخضوع لايحمد الا فى التدين والايمان . فقالت انهــا لمحت منه مرة أنه يطيل النظر فى مجلسها الى امرأة أخرى من صديقاتها . . . فخطر لها أن تناجى نفسها ســائلة : هل يجسر يا ترى على أن يطلب منها الوساطة بينــه وبين تلك المرأة فى التقريب والتمهيــد ؟!. . قالت : « فراعنى هــذا السؤال ، ولكنى عدت فشعرت انى ســأفرح بأن أسره وأن جاء سروره من هذا الطريق المهين ! »

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه ، وتمادت بها الوحدة وهى فى دهشة مخيفة ، فجعلت تلتفت الى شاب وسيم من الجيران ، ثم تمعن فى الالتفات اليه حتى أصبح انتظاره وهو عائد الى منزله فى الهزيع الاخير من الليل شغلا لها شاغلا فى اليقظة والمنام ، وأخذت تحاسبه فى طويتها على هذه السهرات وتتخيل مع من تكون وكيف تكون . .! ويزيدها ذلك لجاجة فى الولع ولجاجة فى الانتظار ، ولم يلبث هذا الالتفات منها أن أدى الى الالتفات منه ثم الى التحية ثم الى لقاء جنونى فى المنزل الذى يحيطها فيه الآل والاقربون ، وكانت هذه المغامرة العجيبة هى العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب !

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بهــا أول مرة ، ويذكر ما تحدثت به اليه فى أول خلوة . لم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت فى الانصراف لانها ذاهبة الى موعد مع صديق، وأرته خطابا من ذلك الصديق يقول لها فيــه انه يشترى فى

ذلك اليوم سيارة ويحب أن يستأنس برأيهـــا وبذوقها فى اختيار اللون والطراز . فأذن لها صـــاحبنا وهو يقول مازحا : « هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة ... فلا تهمليه ... »

قالت له فى أول لقاء بعدها : « لشد ما كنت أترقب منك أن تستبقينى وتؤخرنى عن ذلك الموعد . ولو قلت لى : لا تذهبى ! لما ذهبت ... ولو مزقت الخطاب أو خطفتـــه من يدى لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء ! »

وكانت تحب الضحك وتفطن الى الفكاهة وتضحك احيانا حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع ، ولكن صاحبنا لا يذكر أنها ضحكت يوما كما ضحكت امامه وهى تمثل الصـــديق صاحب السيارة وتروى ما جرى بينها وبينه حين اجترأ أول مرة على اقتراح خطير ، بعد تمهيد وتحضير ، وحذر وتحذير

وما هو الاقتراح الخطير ؟

قبلة ... !

نعم قبلة ، وأكدت الـكلمة وهى تروى الحكاية مرتين

قالت : « انه كان ينتظرنى فى طريق الزمالك ، فلمحت أول ما وقع نظرى عليه انه مهموم قلق يخفى على أطراف شفتيه نية من النيات ، وكان ذلك بعد أن التقينا عدة مرات وانفردنا فى الخلوات ساعات . فلم يعسر على أن أستشف تلك النية ، وراقنى أن استدرجه الى الافصاح عنها لارى كيف يتـــدرج فى الكلام ، فأضجرنى كثيرا قبل أن يستجمع فى قلبه القدرة على أن يقول : يا فلانة !

قلت : نعم يافلان

قال : ان لى أمنية أحب أن افاتحك فيها وأرجو أن لاتر فضيها ولا تسيئى تأويلها

قلت : اننى أحب أن أرى أمانيك كلها تتحقق ، ولا سيما الامانى التى فيها لك الخير والنجاح

قال : اشكرك ... لكن هذه الامنية فى يديك انت ؟

قلت كالمستغربة : فى يدى انا ؟ ما علمت قبل الآن اننى رئيسة عليك ، ولا اننى قادرة على نفعك وتوفير ماتتمناه !

فأحجم قليلا ، وخشيت أن يعدل عن مجرى حديثه فعدت أقول : ومع هذا أسمع منك هذه الأمنية فلعلى أشير عليك بما يفيد

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى على الله ان أسمح له بقبلة !!

فسكت هنيهة لا ادرى هل أضحك أو أتغاضب . وظن اننى اتجهم واقطب واننى اهم ان الومه واخاطبه بما يسوؤه ، فأسرع الى الاعتذار ، وأسرعت انا الى الكلام لئلا اضحك ، قائلة :

ــ أو هذا مما يحسن بك يا فلان ؟ لكأننى بك غدا تتمادى الى أكثر من ذاك ..

فصاح كمن مسته نار : انا ؟! أتظنين يا فلانة اننى من هؤلاء ؟ معاذ الله يا فلانة . معاذ الله

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهى تحكى له هذه الحكاية ، واستدل من ضحكها أكثر مما استدل من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء والرجال . فما الذى يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء وتمضى مع أيسر الاهواء ؟

لا بل هى قد اعترفت له بما هو أدعى الى الشك والريبة من جميع ماتقدم .. فقد غضب منها وغضبت منه قبل الغضبة الاخيرة مرات عديدة ، بعضها يعقبه الصلح فى يومها وبعضها يتجاوز الايام وقد يتجاوز الاسابيع ، ففى احدى هذه المرات افترقا بعد عراك عنيف بالغ فى العنف والتهجم فوق ما تعودا من عراك وصدام . وسافر الى مصيفه وسافرت الى مصيفها ، ولا مطمع لهما فى لقاء ، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أنه عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاما ولو سلام المجاملة والتكليف ، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى غلافا فيه صور شمسية تمثلها الى جانب بعض المشاهد الخارجية التى يرحل اليها المصطافون والسائحون ، ومضت أيام معدودات واذا بجرس التليفون يدق واذا بالمتكلم ذلك الصوت الذى لا يلتبس عليه بين ألوف الاصوات :

ــ الحمد لله على السلامة !

ــ سلمك الله وعافاك !

ــ هل لى أن ألقاك اليوم ؟

ــ نعم . تفضلى !

ــ اتفضل ؟ لا . لست أتفضل ، ولكنى أزورك لالتمس الغفران ... هل فى وسعك أن تمثل دور الكاهن فى الديانة المسيحية ؟

قال : أخشى ان يكون دورك اذن هو دور الخاطئة ؟

قالت : هو ذاك . فالى اللقاء ... فالتليفون لا يتسع لمثل هذا الحديث

لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا

احتقار . ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضا يلجأ اليه ، واستقبلها عاطفا عليها متطلعا الى ما وراء حديثها مستعدا للتسامح فى الاصغاء اليها . فدخلت وهى تقول فى غير احتجاز ولا امتناع :

ـ لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتى واعرف رأيك

« اسمع يا فلان . اننى لا أومن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لى فى معاشرة الصديقات المزعومات على الاطلاق ، فان لم يكن الى جانبى رجل أهابه وأحبه وأعتمد على سنده فأنا فى وحشة الهالكين ، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفة لا طاقة لى على دفع الغواية . وقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندى وليس لى حق عندك ، وأنا لا احاسبك على شطحاتك فى مصيفك ان كانت لك شطحات ، ولكنى اسمح لك أن تحاسبنى على الصغيرة والكبيرة وابوح لك بأننى زللت فى المصيف وانغمست فى صلة غرامية ليس فيها غرام فى الحقيقة ، ولم احضر اليك اليوم بل لم أرسل اليك الصور الا وقد قطعت تلك الصلة وهيأت نفسى لاستئناف مودتنا القديمة . وهاأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل ؟ هل تقبلنى ؟ »

فاستزادها من خبر تلك الصلة التى لا غرام فيها كما تقول ، واسترسلت هى فى تفصيلات لم تستر فيها سرا ولم تصبغ فيها أمرا بغير لونه ، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدى الكاهن على حسب « انذارها » فى حديث التليفون

قال بعد أن أصغى اليها فى صمت وابهام :

ـ اننى يا فلانة لا أملك ان اجيبك هذه الليلة ، ان انا قبلتك

فلست آمن أن أندم وان أنا رفضتك فلست آمن كذلك أن أندم . ولكن دعينى بضعة أيام ريثما أروض سريرتى على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتى عليه ، غير خائف من عواقب العجلة

وما انقضت تلك الايام حتى استقبلها صافحا ، وسألها ان تذكر أبدا انه قد يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم لها عذرا من الختل والخداع ، وحمد لها صراحتها ولكنه فى الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجس منذ تلك الساعة ، ولم يزل على تفاهم دخيل بينه وبين طواياه انه لا يأوى الى حصن حصين ، وأنه مع ذلك هو حصنه الذى لابد أن يأوى اليه !

فلما ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلى والملابس وما الى ذلك من علامات هى لمن يعهدها أثبت من البراهين وأصدق من الشهود ، ورانت السآمة على كل لقاء ، وتغلغلت اللواعج والاشجان فى كل فراق وغلبت الاكدار على كل صفاء وكل رجاء . ولم يبق الا ان يقبلها على أن يستغرق هو فى حبها ويسمح لها هى أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل ، أو يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضا مستحيل ، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا ما قد عول عليه ، وظن انه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر

وانه لفى حسبانه هذا يوشك أن يودع القلق والاسر ويقبل على الطمأنينة والحرية ، اذا به يهاجم فى الصميم ، واذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهى تتدفق عليه أنه عائد لا محالة الى ما ودع من شقاء وألم ، وليس بين تلك الظواهر

والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود الى ما ودع من ثقة ونعيم . فماذا عساه أن يصنع ؟ لا تسل فكره ولا تسل قلبه ولا تسل ضميره ، بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التى عزمت عزمها بغير اكتراث لفكره أو لقلبه أو لضميره ، واستقلت بارادتها وهى لا تترجم عن تلك الارادة الا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير ، فطلبت النجاة بالبداهة المرتجلة وحملت الجسد الذى هى قوامه الى خارج المنزل وهى لا تعى ولا تفقه الى أين تسير ولا لوم على من يطلب النجاة ، فانما هكذا تطلب النجاة !



علاج الشك

مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب فى هذه الدنيا

« أولا » لاننا فى الغالب لانعرف ماهى الحقيقة

و « ثانيا » لاننا فى الغالب لانحب أن نعرفها الا مضطرين ، حين نيأس من قدرتنا على جهلها ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الامرأن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبرعليها

و « ثالثا » لاننا اذا عرفناها ففى الغالب ـ أيضا ـ أنها تكلفنا تغيير عادة من العادات ، وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت ... فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا انه يغير ما تعودناه ، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة

وقد كانت الحقيقة أنهما ـ أى صاحبنا وصاحبتنا ـ قد تغيرا كثيرا بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لايريدان ان يعترفا بهذا التغيير

تغيرا فلا سرور لهما فى اللقاء ، وقد كان اللقاء عندهما أكبر سرور يشعر به الانسان

ولكنهما لم يزالا يتلاقيان

▱

تغيرا واشتد بهما التغيير وهما لا يجسران على مواجهة

الحقيقة ... فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء حقـا أو يريد الفراق لما استطاع الجواب ، أو لقال فى نفس واحد انه يريد اللقاء ويريد الفراق

ولو سألت هى نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لاتعلم لماذا تحضر فى الموعد كل يوم ، ولماذا لا تفضل الانقطاع على الحضور

هو لم يجزم بخيانتها كل الجزم فلماذا يتركها ؟...ولكنه لا يسر بلقائها فلماذا يلقاها ؟

وهى لم تيأس من صلاح شأنه معها ، أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه ويعز عليها ان تتهم نفسها بهذا العجز وهى تفخر بذكائها ، فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتها واقتدارها ؟ ولماذا لا تجرب كياستها مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوى لديها الفشل والنجاح ؟

وهكذا ظلا أشهرا عديدة يمثلان سعادتهما الاولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين أو ساخطين ، وخير ماوصلا اليه فى تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرجين ... وهما وحدهما المتفرجان والممثلان !

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا اليه كما يذهب الممثل الى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة ، ولابد له من الذهاب ، ولا سرور له فى القعود والاحجام والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد

لقد كانا يحضران الى الموعد بحكم العادة التى لم يجسرا بعد على تغييرها ، لانهما كانا يخافان من التفكير فى التغيير ، ويخافان من التفكير فى ذلك الخواء الموحش الذى يستولى

عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير

فهما يحضران لانهما خائفان من الغياب ، لا لانهما راغبان في الحضور

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختلاف وما أحب اللقاء بعد طول الانتظار ، وان أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد أو بعض يوم في معظم الاوقات

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة في مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات ، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها الى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يقبل على الدار ، وكثيرا ما كانت الغيوم تكفهر والغيوث تنهمر والهواء يعصف باردا قارسا في صبارة الشتاء ، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو وجل منقبض الصدر غائم الخاطر إن ييأس من وصول صاحبتنا في موعدها ، ولها العذر كل العذر اذا هي تأخرت ساعات أو عدلت عن الخروج طوال ذلك اليوم ، ولا يزال في مرقبه نهبا لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال الى أجزاء تعد بالملايين وملايين الملايين لابستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة !! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج . وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فاذا هي الساعة الخامسة الا عشر دقائق ! وبعد مليون آخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فاذا هي الساعة الخامسة

بالدقيقة والثانية ... والويل له اذا تجاوزت هذا الحد ولو الى دقائق معدودات ، لان الدقائق المعدودات لابد أن تترجم فى لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التى لايجمعها الحصر والاحصاء ، وانه ليطيل النظر الى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه ، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق الا كما يرجع الى النائم صحوه أو كما يرجع الى المذهول رشاده ، وتتقدم وهى تتهادى فى خطواتها التى كأنما تتهيأ كل خطوة منهـــا لعناق مشوق ، وينفتح الباب وينقسم العـــالم الى قسمين اثنين لا ثالث لهما فى الذهن ولا فى الخيال : قسم فيه كل شيء وقسم ليس فيه من شيء ... أو قسم موجود وقسم ليس له وجود ، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هى القسم المهجور الذى لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لاوسع من مكانها فى خرائط الاطفال

والذى يحدث فى الشتاء قد كان يحدث مثله فى الصـــيف أيام السموم والحرور . فلا تأخير ولا اعتذار ، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار ، حتى يحين الموعد ويســـتقر القرار

فى تلك الايام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج : اذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذى يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الامان والاطمئنان الى زمن طويل وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب الى مهرب سحيق ، واذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذى استوفى نصيبه من العقار وبقى له نصيبه من النشوة والتذكار ونصيبه من الشوق فى الغد الى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل

هذا الانتظار ، وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقــــاء ووداع وألف انتقال من حال الى حال ، وألف سكينة وألف ابتذار

تلك أيام !

ثم جاءت بعدها أيام

وشتان أيام وأيام

نعم شتان حقيقة وتمثيل... وأى تمثيل ؟! تمثيل اللاعب الذى يساق الى دوره سوقا لانه يخشى الفشل لا لانه يأمل النجاح

واستمرت المواعيد ، واستمر اللقاء ، واستمرت السآمة ، واستمر الشقاق ، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود مالا سبيل الى أن يعود

وكانت هى تقلد نفسها فى أيام الصفاء فتمد يدها الى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدها الى جيبه بعد ســــاعات الرضا والدلال لتخرج منــه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطرا أو كلمات تسجل بها ما كان فى ذلك اليوم ، فكتبت يوما بعد مقابلة لم يسمع فيها الا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : « نزهـــة رسمية فى عربة . ثم مناقشة جدية . ثم مصافحة وتقبيل ، ولا عجب فى ذلك ... فان الحب يسهر ! »

نعم يسهر من الارق لا من العناية !

وسهر الحب الى اليوم التالى فالتقيا وتراضــيا وتناولت هى المفكرة وكتبت فيهــا خمس كلمات : « سامحت من غير سبب . أحبك »

ولكنها كانت آخر ما كتبت فى مفكرة ذلك العام ، وفيما بعده من أعوام

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم يكن فيها الا تمثيل ناجح أو تمثيل فاشل ، وصاحبنا خليق أن يكون واحدا من هؤلاء النـــاس لو اقتصر الامر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال ، ولـكن الشيء الذى لا يطاق هو أن تشك ثم لاتستطيع أن تصل الى الحقيقة ، ولا أن تكشف عن الشك ولا أن تستقر عليه ، فانها حالة لايطاق لهـا دوام ولابد لها من انتهاء

فكيف هذا الانتهاء ؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق اســبوعا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير ، ويعرفان من ثم كيف يكون صــبرهما على الفراق الحاسم الذى لا لقــاء بعده . فان هان عليهما بعــد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا اذن بغير ندم ولا خصام ، وان عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق الى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد ، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عنده ماينهاه عن مطاوعــة الهواجس ومجاراة الشكوك

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لايحتقرانها بعد طول السآمة وطول النزاع ، فان اللهفة الصــادقة التى طفت عليهما يوم عادا الى اللقاء قد عادت بهما الى حنين شبيه بالحنين القديم ، ونعما فى ذلك اليوم بمتعة هنيئة لم ينعما بها منذ عهد طويل

ولما شيعها الى الباب وهو يقول الى اللقاء فى الغد قالت : لا ... ان اللقاء بعد يومين او ثلاثة أمتع واشهى ... وسأخبرك أو تخبرنى عن الموعد متى طلبناه ... ولا نتفق عليه الآن !

واستحسن منها هذا التسويف كما كان من قبل يستحسن منها نشاطها فى تعجيل المواعيد ، وود فى خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوما أو يومين . ففى ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة ، وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيه حب الاستطلاع

الا انها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد

فما هو الا موعد أو موعدان حتى أحس كما يحس كل رجل يفهم طباع المرأة التى يهواها انها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسدها أيام الغياب ، وأنها اصبحت ترحب بالتسويف لانها تريده وتستريح اليه ... ورجع الى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل هى التى اقترحت فى بادىء الامر ان يعالج الشك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذى بدأ بالاقتراح ، فتذكر أنها كانت تحوم حول الاقتراح وتوحيه اليه وتهتم بأن توقع فى ذهنه أنه هو صاحبه وموحيه ... فقال لها متهكما :

أرى أن الحل الاخير الذى اهتدينا اليه يرضى أكثر من اثنين !

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : اعنى انه ربما ارضى ثلاثة بدلا من اثنين ، وربما اربعة ... من يدرى ؟

قالت متهكمة : وربما خمسة أو ستة ... زيادة خير ... ولماذا تكره الرضا لعباد الله ! ؟

وتلا هذه المحاورة منظر من مناظر المسابقة فى الايلام والتبكيت والغضب والاغضاب . قال فيه وقالت ، وتمادى فيه وتمادت ، وباح فيه وباحت ، وخرجت من المنزل حانقة لا تودع ولا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع

□

وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى اليها ولا تسعى اليه . ونازعته أهواؤه مرات فى أثناء هذه المدة أن يراها وأن يتحدث اليها فنفر أشد نفور وكظم هذه الرغبة بجهد أليم . وبينما هو يحسب نفسه غاضبا نافرا اذا به يتحول رويدا رويدا الي مشفق حزين ، واذا باشفاقه الحزين أقرب الى اشفاق الابوة الرحيمة منه الى اشفاق الغرام اللجوج ، واذا به فى ساعة من الساعات يكتب اليها هذا الخطاب :

أيتها الصديقة :

أيا كان رأيى فيك أو رأيك فى فلا ضير فى ارسال هذه الكلمة اليك ، ولا خسارة على ان ضاعت عندك أو صادفت نصيبا من الاصغاء ... ان مسحة من الالم ألمحها على وجهك تخيل الى أننى أخاطب منك مستمعا ، وان موضعا حيا فى ضميرك لا يزال مفتوحا لهذا الخطاب

لا حاجة الى البحث فى تفاصيل حياتك القديم منها أو الجديد ، فحسبى ما سمعته من لسانك ، وحسبى أنك

تعترفين لى أنا بعلاقات ماضـية مع أكثر من رجل واحد ، وفى هذا كفاية وفوق الكفاية !

فلو قيل لى اننى سأسمع هذا الخبر من انسان لمـا خطر لى قط اننى أسمعه منك أنت باختيارك . ولو جاز ان تبوحى به لكل اذن لكانت أذنى هى الاذن الوحيدة التى يجمل بك أن تكتمى السر عنها ، لاننى أنا الرجل الوحيـد الذى يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة

ومع هذا بأية بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك ... لكانما كنت تفخرين . أو كانما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ... فياصديقتى لشد ما ضللك الشقاء حتى جهلت ماتعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة الى تعليم وتلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع ان تكون لهذا ولذاك ولكنها لاتستطيع أن تفخر بشيء لم تعجز عنه امرأة بين النساء . فهل أصدق حقا انك أنت تلك المرأة التى لم يبق لها الا هذا الفخر المخجل الاليم ؟ وهل أنت حقا تلك المرأة التى تجد سعادتها فى هذا المجال ؟!

أظن ـ وأرجو أن يكون ظنى صحيحا ـ انك تخدعين نفسك يا صديقتى الخادعة المخدوعة

لست أنت التى تشعرين بالسعادة فى هذه العيشة الاسيفة

غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ولكن شقاءك انت بها لا يعدله شقاء

انظرى الى وجهك فى المرآة . انظرى الى الم ضميرك الذى يبكيك كثيرا ولا ريب فى ساعات الوحدة والانفراد

ثم اسألي نفسك : ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك فى عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك واحترامك لشعور الانوثة الذى لا سعادة لامرأة بغيره . وماذا فى الحياة بعد فقد الثقة و فقد احترام الشعور ؟ أنت فى تلك الحالة بين اثنتين : اما أن تألفى العيشة التى تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذى يموت به كل سرور صحيح

واما أن تتعذبى بها أبدا بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة ، وأنت انما تفرين من العذاب وتطلبين الراحة والاطمئنان

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هذا الالم المخيف ... فاذكرى نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التى كانت تساورك حين تحضرين الى ، واذكرى كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة .. كان اهتمامى بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئا من الضيق الذى يسد عليك منافذ الامل ، لانه يعطيك فكرة عالية فى نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسمم كل شعور وينغص كل نعيم

اذكرى كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب وكيف ظهر ذلك على صحتك وملامحك فسألتنى فى يوم من الايام بين الجد والمزاح : أصحيح : أصحيح أن وجهى يمتلىء ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين الى جانبك بنفس انسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد فى عذرك مااستطاعت ، وترعاك فى الغيبة والحضور ، وهذا أحوج ما تحتاج اليه المرأة خاصة فى هذه الحياة

فكل امرأة ــ كل امرأة بلا استثناء ــ فى وسعها ان تجد رجلا يأخذها جسدا ويطرحها سائما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام

ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضا والغضب والشكر والملام ..

انت أم فاذكرى ذلك جيدا

أنت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثلك فى هذه الصفات ، فلاتنسى عزتك التى تليق بك ولاتنزلى قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة ، واسالى نفسك مرة أخرى : هل وصلت امرأة الى العاقبة المخيفة ــ الى المرض والهوان ــ من غير هذه البداية ؟ وهل وصلت امرأة الى تلك العاقبة وهى تظن أنها واصلة اليها أو انها قريبة منها ؟ كلا ! ... كلهن يا صديقتى يحسبن ان النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للأمان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهن . والعاقبة واحدة على كل حال !

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللوائى تحوطهن حمايات كثيرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات

فأنت فى حياة التجرد والانفراد عرضة لكل شىء وفريسة رخيصة لكل واش اثيم ، وكم جنى عليك حرمانك من انس القرابة الشفيقة وحنان الام الرءوم ومعيشة الزوجية الهانئة ، فخسرت السعادة وافسد عليك اليأس عاطفة الرحمة والاخلاص

ولكن هل من الضرورى لك أن تجنى أنت أيضا على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوة الالم الشريف واباء الحرمان العفيف ؟ وهل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التى لا تعرف السعادة ولا تعرف الالم الذى تحترمه هى ويحترمه الناس ؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شيء ..... بى من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و « ظروفك » السيئة مايمنعنى أن أنظر اليك نظرة قاسية

وماتمنيت ولاأتمنى شيئاكماأتمنى أن أراك بعين الاعجاب والفخر والمحبة . ولكنى أقول لك وأنا آسف: أن فقدك لم يكن هينا على فى وقت من الاوقات كما هو هين على الآن . فاذا كتبت اليك هذه الكلمة فانما هى كلمة صديق يريح ضميره وواجب أخير لابد من أدائه ، واذا أبيت الا أن تفهمى لها معنى من معانى الانانية فافهمى اذن انها كلمة انسان يذكر برهة من حياته ويود ان يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة الى آخر أيام الحياة

والوداع ، والسلام

الرقابة

لمــاذا كتب ذلك الخطاب ؟

انه لم يستوضح نفسه سببا لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر في كتابته ، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه الى الرسول الذى تعود أن يسفر بينهما بالرسائل . ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب : اى خاطر ذلك الخاطر الذى ورد على باله وهو يحسب أنه واصل الى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ ؟ أيظن أن خطابا كهذا قد يثوب بها الى الوفــاء والاخلاص ان كانت تخون وتخدع ؟ أيزعم ولو على ســبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لانها تقرأ كــلاما كهذا الكــلام وتروىء النظر فى مصير كذلك المصير ؟

آخر مايطمع فيه العاقل ان يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع ! فكيف بصاحبتنا التى يعرفها حق عرفانها ويعرف ان الكلام لا يستحق عندها الهزء والتحدى بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير . . . انها تريد أن تثور وتجمح ، ولاشيء أقمن بأشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الانسان بكلام يصدر عن العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية ! وان الرجل من رجال الدين ليستحق عندها كل اكبار وتبجيل لأنه يخالف فىحياته الخاصة مايعظ به الناس فى حياته العامة ، وقد خاضا فى حديث بعض «الائمة

النساك » مرة فقال لها : لست على يقين أن مولانا هذا يحب السماء والآخرة . ولكني على يقين من حبه الأرض والدنيا . . . ألا تعلمين ذلك ؟ . . قالت أعلم كل العلم . بل أعلم أنه يحب فلانة وفلانة وفلانة وفلانة . . . غلطان أنت يا صديقى ان حسبت أنك تغض من « مولانا » بما اتهمته . ان خفاياه تلك لهى التى تحببنى منه وتكبره فى نظرى وتحملنى على تقبيل يديه ، واننى ما سمعت عظاته يوما الا استعظمت منه انه قادر على مخالفتها. ثم راحت تقول مازحة ــ وكانت كلمة غلطان يا صديقى من لوازمها فى الحديث : ــ غلطان أنت يا صديقى ان حسبت ان المرأة تنقم على رجل الدين أنه يدع السماء من أجلها !

قال : وما رأيك فى الراهبة التى تترك السماء من أجل رجل؟ الها عندك مثل هذا المكان من الاعجاب ؟

قالت : ان الراهبات لا يعظن أحدا ، واللعبة تفقد كثيرا من بهجتها بهذا الدور البسيط الذى تمثله الراهبة الغاوية : وأعنى به دور الوجه الوحيد !!

▱

اذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التى لا تعجب من الوعاظ الا بقدرتهم على الوعظ وقدرتهم بعد ذلك على نقض المواعظ

نعم انها تتذوق الكلام وتعطيه « درجته » العادلة من التقريظ والتأثر ، ولا يبعد أن تبكى اذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع ، ولكنها لن تزيد على ذلك ، ولن تخلط بين التقدير الفنى والنتائج العملية ! ولو كانت فى موضع السلطان العثمانى سليم الأول لبكت من قصيدة الشاعر الذى تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنه ، ثم أمرت كما أمر بسوقه الى

ساحة الموت عقيب انشاده القصيدة : لأن الفن شيء والسياسة شيء آخر ! !

أم ان صاحبنا ـ وليكن اسمه هماما وليكن اسمها منذ الآن « سارة » لتيسير الكلام عنهما . . .

أم أن صاحبنا هماما قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها اليه صراحة فعمد الى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء . . . ؟ !

لا . ولا كل هذا

ان هماما لم يكن من دأبه أن يقصر في مراجعة نياته ودسائس طبعه ، ولقد يغلو في ذلك حتى يعزو الى نفسه من المقاصد ما ليس في حسبانه ، ولكنه ـ غلا أو لم يغل ـ ما كان في وسعه أن يزعم انه بحاجة الى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء . فاللقاء لم يكن بالشيء العسير ، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة ما يلجيء الى الحيلة والمناورة ، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب الى التصديق من التذرع به الى تدبير لقاء .

السبب في الحقيقة انه لا سبب هناك

السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا الى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح انفسنا عن علة معقولة او نتيجة مأمولة . وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر انه فعل شيئا لا علة له ، ولا هو يقبل التعليل :

كذلك يفعل الاب الذي يرى بين يديه ولدا مريضا ميئوسا

من شفائه وهو لا يستقر الى التسليم ، وكذلك يفعل المحرج الذى يرى أن العمل واجب لأنه خير من سكون لا صبر له عليه ، وكذلك يفعل الذى لابد أن يفعل ، لأنه بالفعل يستريح . أما بالسكون فلا راحة ولا أمل فى الراحة

واتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون

لم يكن هذا الحديث بالمقصود ، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض

واتبع الحديث موعد وزيارة

وجاءت فى الموعد وهى تبدو بتلك الطلعة التى يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة : طلعة السفير الذى يدخل المملكة الغريبة ولا يدرى احرب أم سلام ، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقى أن يبرز الضعف ، ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به فى الحقيبة المغلقة ، ولا يتجهم ، ولكنه لا يتطلق ويتبسط فلم تتهيأ للموعد بزينتها التى تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه ، ولكنها لم تهمل زينتها اهمال المعرض قليل الاكتراث ، فهى زينة صالحة مع قليل من الاعتذار ، واذا وصل الأمر الى هذا فأى اعتذار لا يغنى غناه ولو جاء عفو الساعة ؟ !

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين : بالدعابة والتهكم ، أو بالاسى والتضعضع . فأما فى هذه المرة فسلاح الأسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التى تتردد بين الحرب والسلام . فدخلت من الباب وهى تشهر سلاح التهكم والمناوشة ، والتفتت وهى داخلة

كمن ضل الطريق وأفضى به السير الى غير المكان المتوقع ، فقالت وهى تلقى بقبعتها :

من أكبر العجب أننى وصلت الى هنا ولم أصل الى المعبد !

قال همام فى سره : ويحك ! هذه تحية وعظك ! ثم اجابها من نمط تحيتها قائلا :

معبد ؟ استغفرى الله يا أمة الله !! وهل تستطيع قدماك أن تحملاكِ الى المعبد ولو قادك اليه الف دليل ؟

قالت ولم تتريث : انه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذى تحملنى اليه قدماى ! !

قال : وهل تحسبيننى أغتبط بهذا التقريظ ؟

قالت : معاذ الله ، ولاسيما وأنت بخطابك صاحب دعوى فى الهداية والارشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة .... ومع ذلك لا أظنك آسفا لهذه الغلطة

وبدأت فى نغمة الدلال بعد ما أنست من لهجة الحوار أن الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف . ثم دنت منه تقبله فقبلها وضمها وأجلسها وجلس الى جانبها وهو يغمغم متخاذلا : لو أنها غلطة قدمين يا سارة ؟ !

قالت : غلطة قدمين أو غلطة يدين ، ألا تستطيع أن تتعلم « الربوبية » ساعة وتغفر الزلات ؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس لها معنى الا انها تقول فيها : أنا أعرف كيف ارضيك ؟ اليس كذلك ؟

فجاراها فى الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق

معا : وهل أحرص عليك يا ملعونة الا لهذه الحذلقة ؟ متى علمت أن ربا من أرباب الاساطير غفر الزلات لشريكة قلبه ؟ انما يغفرون للمخلوقات التى تخون المخلوقات من أمثالها ، أما « الخيانة العظمى » فأين هم الارباب الذين يغفرونها ؟

واطمأنت الى مكانها ، وشعرت انها فى بيتها .. نعم فى بيتها لا فى « سفارة » تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة ، فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه . الى أين ؟ الى « الرشاش » كعادتها فى كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء ، لانها لا تميز الفصول كما تقول الا بالتقويم وجريدة الازياء !

أفى هذه تريد التفريط ياهمام وهى فى قبضة يديك ؟ لا ياصاح ! لست معك فى هذا ... انما التفريط فيما يعوض ويستبدل فأما الذى لا عوض عنه ولا بديل له فان احتمال الأذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه

وانه لفى هذه المناجاة اذا هى تتهادى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها ، واذا هى أمام المرآة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة فى شعاع الفجر البليل ... وكالشيطان !

منذ الازل وقفت هذه الفتنة الى جانب ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها ومشترعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها ، وقالت هذه الفتنة كلمتها وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ووعدوا وأوعدوا . وأمامك الناس جميعا فاسألهم واحدا واحدا : كم مرة سمعتم

هذه وكم مرة سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك ان فى تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ولا لشيء من الاشياء

ليست هى المرأة المسموعة هنا ولكنها هى الطبيعة .

والمرأة والرجل والحكماء والحـــكمة ألعوبة الطبيعة التى لا تسام اللعب ولا تعرف الجد لأنها لا تعرف التعب . وربما كانت المرأة أضعف هذه الألاعيب كما يكون الطعم أضعف من السمكة التى تأكله ، وان كان الطعم ليقودن السمكة الى الهلاك

ومن القاضى الفاصل بين الطبيعة والحكمة ؟ انما القضاء لمن ينتظر منهما الحجة الاخيرة والنتيجة الخاتمة .

ولكن ليس للطبيعة انتهاء

فهى فى جميع الازمان صاحبة القول الاخير

فى ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الانسان ما لا ينسى ، ويخطر له الاغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه، ولقد خطر هذا لهمام فى تلك اللحظة ووسوس له الهوى ان ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه الى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر الا متعتها . فتمنى فى تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبهلها أقل ، وماضيه معها أقصر ، وشرطه عليها أقرب وأيسر . اذن لاكتفى منها بما تعطيه ، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه .

ان الرجل الذى يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفى منها بساعة من يومها ، ولكن هل يكتفى منها بتلك الساعة وهو يهب

لهاساعاتهوأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره، ويحجببيديه ضياء المستقبل الذى يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمعمنالدنيا فى غرام بغير فراق ؟

ان الابن لن يكون ابنا أو نصف ابن . وان التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة ، فهى اما صنعة الفنان المنسوبة اليه والفترة المردودة اليها أو هى ليست بصنعته على الاطلاق

فلا تقريب ولا توسط فى هذه الامور

وهذه المرأة ، بل هذا العالم الحاشد منالنساء لأن كللحظة من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها ، هذه المرأة التى لامرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره فى ابان هواها ؟

ليست الحكمة هى التى تتكلم هنا ولكنها هى الطبيعة ، ومن ذا يقاوم الطبيعة فى غوايتها غير الطبيعة فى ثورتها ؟ ان الصراع هنا لبين ندين متكافئين ، والويل للفريسة المطرودة بين الندين

لا ! سأحتفظ بهذه التحفة وأصونها جهد ما فى وسعى من احتفاظ وصيانة ، ولكننى لن أحتفظ بها الا تحفة نفيسة .. فاذا بعتها فلن أبيعها الا وقد أيقنت أننى غير مغبون فيها ولا نادم عليها

تحفة بين يدى لا شك فيها

أقول حينا أنها تحفة نفيسة فليس فىكنوز الارضمايعدلها ويقوم بثمنها

وأقول حينا أنها تحفة زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر

وهذه هي الحيرة • فقولى يا حكمة الحكماء ويا هداية الهداة، وقولوا لى يا صيارفة هذه الجواهر ويا دهاقين هذه المعادن ، ويامن يستطيعون أن يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل بين مايباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الارض وذخائر البحار

لا ! لن أبيعها الا بدرهم • فان كانت الاخرى فلا بيع ولا شراء :

« لما غلا ثمنى عدمت المشترى »

نعم وعدمت البائع ايضا ...

هذه هى الحيرة فكيف الخروج منها ؟ لا حاجة الى أكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة • فمن ذاك الذى تتاح له تلك النظرة ؟

كان همام فى تلك الأيام يقرا رواية « سيدة الاكاذيب » للكاتب الفرنسى الكبير بول بورجيه ، ولعله قرأها لعنوانها وما يرجو أن يطلع عليه من أكاذيب سيدتها ••• وفى الرواية امرأة لعوب من نساء الأسر المترفات ، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والحلى والهدايا ، وعاشق ناشىء يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه ، وكل من هؤلاء راض بنصيبه الا العاشق الفتى الذى يتنطس ويتوجس ويلح فى كشف الاسرار فيعمد الى الرقابة ولا يلبث ان يخلص الى الحقيقة

فما الرأى اذن فى الرقابة ؟

ان نظرة من رقيب أمين لتغنى عن كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معادن الوفاء وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف ... فان لم يكن من الرقابة بد فلتكن الرقابة ، ولكل شيء من جنسه آفة !

وأثلجت تلك الخاطرة صدر همام وان كانت قد غضت من سروره باللحظة التي هو فيها ، ومن أين يخلص السرور وبينك وبينه رقيب ؟

تتابعت الخواطر عدوا دراكا فى رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتنامى شغفه بها كلما تمادى فى تفتيشها واستقصائها ، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه الا ريثما فرغت « سارة » من تسريح شعرها وتجفيف أهابها ، لأنه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحة مفتوحة بين يديه يحيط بها فى نظرة واحدة ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جوابا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات . غير أنها فطنت لما يجول في خلده وأدركت أنه ليس معها بجميع قلبه ولسانه، وأشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما . فاستدارت اليه من المرآة متفترة متكسرة ، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت : أراني متعبة . أريد أن أذهب ... أو أريد أن أنام

وانقضى اليوم بسلام ، ونسيا أو تناسيا خطاب « الوعظ »

بعد ما كان من عبث التحية الاولى، ونزلت سارة وهى مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء ، ومن دأب المرأة اذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الاعباء ، وهذا الذى يلوح للرجل فى صورة البراءة فينخدع ، أو هذا الذى يسمونه أحيانا بعمق المرأة وقدرتها على اجادة الرياء واخفاء ما فى الطوية ، وانما هى فى خفتها كالطفل الذى تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولاتثقله الدخائل ، وقد ود «همام» لو يستطيع أن يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة ، وما هو بمستطيع • فليرجع الى الرقابة فهى مرجع الانصاف ومقطع الخلاف ، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الارض وذخائر البحار ، أو بدرهم لا يندم عليه ملقيه فى التراب



وكيف الرقابة ؟

صحت النية على الرقابة فلا مناص منها

وبقي أمر الرقيب والعثور عليه

فمن يكون هذا الرقيب ؟

لم يشرع همام فى بحث هذه المسألة حتى وضح له أنها مشكلة كثيرة الشعاب

فخطر له فى بداية الامر أن يستعين برجل يؤدى هذه المهمة وينقده على ذلك أجرا يرضيه

ثم قلب الامر على وجوهه فرأى أن هذا الرجل المستأجر يحتاج الى رقيب عليه لضمان اخلاصه وجده وحسن التبصر فى عمله . فاذا ترك بغير رقيب فأغلب الظن أنه يأتى فى آخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجورالسيارات والجلوس على القهوات ورشوة الخدم والبوابين ، ولا فائدة من جميع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشويق لاستطالة الرقابة واغتنام الاجور

ثم تنقضى الايام وهو لم يعرف شيئا ولا أعان على معرفة شيء

وهبه عرف بعض الحقيقة-أو عرف الحقيقة كلها فهذا أخطر واخسر ... لأنه يستغل معرفته كلما احتاج الى المال لابتزاز الاتاوات والانذار بكشف الاسرار ، فيوما يهدد السيدة ويوما

يهـــدد السيد ويوما يقارب الاقرباء والأولياء ويلوح لهـم بما وراء الغطاء • ولعله يختصر الطريق من أوله فيطلع السيـدة على مهمته ويفسد الامر فسادا لاصلاح بعده

رقيب أجير لا ينفع فى هذه المواقف

ولن ينفع فيها الا الصديق الصدوق

نعم لا ينفع فيها الا رجل يعنيـــه أن يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها ! فكم عندك يا همام من أمثال هذا الصديق ؟ مئات ؟ عشرات ؟ آحاد ؟

ان الناس يحسبون «الضيق» محك الصداقة الذى لا يكذب ولا يخيب

والناس فى ذلك مخطئون

لأن الصديق الذى ينجد صديقه فى الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه فى أعماق السريرة

وليست المعونة الصـــادقة هى المعونة التى تدخل فى رقابة العرف أو فى رقابتك أنت بينك وبين صديقك ، ولكنها المعونة التى لا حسيب عليها غير الضمير ، ولا باعث لهـــا غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور

كثير من الاصدقاء يعينون أصدقاءهم فى الضيق لأن العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالا للامانة والوفاء وجميل الفداء

وكثير من الاصدقاء يعينون المرء على الشـــئون التى يشعر هو بمعونتهم أو بتقصيرهم فيها ، لأنه يحمد لهم ما صنعوا

ويجزيهم بما أسلفوا ويرد لهم ما أقرضوا

أما الشئون التى لا رقابة عليها للمرء ولا للعرف فالمعينون عليها اقل من القليل ، وهمام ـ أو غير همام ـ سعداء ان ظفروا من كل ألف صاحب بواحد فذ من هؤلاء الاعوان

فى هذه الشئون يستطيع الصديق أن يقصر وأنت لاتشعر بتقصيره ، وربما قصر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم ، لأنه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى .. فكيف يتقى مغبة التقصير ويصبر فى سبيل ذلك على الجهد العسير او اليسير ؟

واذا انكشف تقصيره فمن ذا الذى يلومه ؟ لعله يلقى يومئذ من المعذرة والثناء أضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة

ذلك كله على أهون الفروض

أما أصعب الفروض فهو أن تنقلب الرقابة الى مطاردة والمطاردة الى اقتناص ·· وليس أصعب الفروض دائما بأبعدها وأندرها فى الوقوع !

حيرة جديدة « نجا » اليها همام من الحيرة الاولى ·· والحيرة الاولى باقية كما كانت فى موضعها القديم

وان هماما ليضرب اخماسه لأسداسه ويبرح فى ضربه وايجاعه اذا بالقدر يحل له المشكلة العصية أسهل حل مستطاع، واذا بالسماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود !

ـ ماذا جاء بك يا أمين ؟

ـ جاءت بى أجازة أيام

ـ ويحك ! أنت طول عمرك تفصل من أعمالك بغير داع ·

أفما كان فى وسعك هذه النوبة أن تنفصل فصلا نهائيا يا لئيم !

قال أمين وقد فوجىء : لماذا هذا الاستعجال على الفصل ؟ ما الخبر ؟

قال همام : الخبر أنك لازم لنا مدة طويلة ٠٠ أطول من أيام ٠٠٠ ولعلها أطول من أسابيع

وسرد له المسألة بأقصى ما رآه صالحا من التفصيل والاسهاب، فلم يكذبه حدسه ، وأسرع أمين بالاجابة والموافقة ، وأوشك أن يسرع بالشكر والتهلل كأنه كان يتمنى ما اقترح عليه ، ووعد أن يأتي بقصارى جهده فى هذه الايام القليلة ولا حاجة الى الفصل المألوف!

لم يكن همام قد نسى أمينا فى مشكلة الرقابة ، وليس أمين بالصديق الذى ينسى فى مشكلة من قبيلها ، لأنه يؤمن بالواجبات الشعرية أشد من ايمانه بجميع الواجبات الانسانية وهو ذو أريحية ومروءة وصدق لسان وصراحة شيمة، ويحسب أن خيانة الصديق فى العشق لا تقل عن الخيانة فى أقدس الحرمات ، وبينه وبين المطاردة والاقتناص هذا الخلق المستقيم الجميل وشيء آخر غير مستقيم ولا جميل ! وهو أسنان عوجاء مثرمة ووجه كثير التجاعيد والغضون ٠٠ فالى أن يمسخ طبعه وتنصلح أسنانه ووجهه هو ولا ريب وفاق الشرائط من وجوه كثيرة ، وأحق من الصحب قاطبة بالتذكر والاعتماد

الا أن هماما تخطاه بادىء الامر لسببين : أحدهما أن أمينا

كان يومئذ يعمل بقرية بينها وبين القاهرة مسيرة ساعات على جميع وسائل المواصلات : على القدم وعلى المطية وعلى السفينة وعلى القطار أو السيارة

وثانيهما ـ وأخطرهما ـ سهوات الذكاء التى اشتهر بهـــا أمين ويالها من سهوات ! فهى كعيب ذلك الزنجى الذى يكذب فى السنة أكذوبة واحدة ... وفى هــذه الاكذوبة الواحــدة قاصمة الظهور

فيجوز أن يكون اخلاصــه هو كل المطلوب فىهذه المواقف، ويجوز أيضا أن يكون هو كل المحذور ، وهمام وحظه ونصيبه بين الجوازين ! واليك المثال :

كان السيد أمين فى احــدى أجازاته القصــيرة ينزل بمنزل همام ، ودق التليفون عصــارى يوم فى مســألة عاجلة فخف همام الى الخارج وأوصىأمينا أن ينتظره ريثما يعود بعد نصف ساعة ، وأن يستقبل ضيوفا قادمين فى هذه الآونة ويعتــذر اليهم بعذر همام المفــاجىء ، ويبغلهم أنه سيرجع بعد هنيهة ليقضى معهم الاصيل حسب الموعد . وقد عاد همام بعد نصف الساعة المقدور فلا أمينا ولا ضيوفا وجــــد فى المنزل ! وكل ما وجده بطاقات الضيوف فى عقب الباب عليها كلمات موجزة تشف عن الاسف والاستغراب

ولبث همام يقدر فى ذهنه ماتوهمه الضيوف من أســباب مغيبه المعتمد ولا مراء . فانه لا يخرج فى هذه الساعة ، وليس للضيوف الا أن يعتقــدوا كل الاعتقــاد أنه رآغ عن الموعد أو

أخفى نفسه وتركهم يرجعون على أعقابهم مسافة ليست بالهينة ولا بالقصيرة

وبينا همام يستغرب خروج أمين ولا يدرى ماذا أخرجه خاصة في هذا اليوم الذى سئل فيه الانتظار ـ أقبل السيد أمين يحمل فى يديه قازوزتين وقليلا من الفاكهة والحلوى وهو راض عن نفسه رضا الرجل الضليع بمهام الامور

قال أمين وهو يخفى اعتزازه واغتباطه بحسن تدبيره وعرفانه بالواجبات التى ينساها الغافلون :

انك ياصاح قد نسيت أن الثلاجة خالية وأن الضيوف قادمون ، وقد ذهبت احضر لهم بعض الشيء فعسى أن يستطيبوه !

فضحك همام غيظا وعجبا من اهتداء صديقه الى العمل الوحيد الذى لاينبغى أن يعمل واعتقاده مع ذلك أنه هو الواجب الذى ينبغى دون سواه . وربت على كتف الصديق قائلا : أحسنت أحسنت يامولانا ، وما عليك الآن الا أن تعدو بالقازوزة والفاكهة فى أثر الضيوف فلا شك أنهم منتظروها فى الطريق ! وأراه البطاقات وما هو مكتوب عليها فما زاد على أن فغر فاه ونطق بحكمته المأثورة كلما أدرك خطأه : « مدهش ! حضروا وعادوا ؟ ليس لهم حق ! . . . ما كان يصح أن ينتظروا ؟ »

نعم كان يصح أن ينتظروا . اما هو فلا يصح أن ينتظرهم فى البيت .

وكان أمين وبعض صحابه يجلسون الى منتدى على مقربة

من مكتب « جماعة المواساة » وكلهم من شراة نصيبها المكثرين ، فارتفعت الجلبة والصياح من جانب المكتب ونهض أمين يستطلع الخبر ، وعاد بعد دقائق فجلس وعلى سيماه قلة الاكتراث وهو يقول : انما هى النمر الأربع الكبيرة !

فانفجر الصحاب ضاحكين وأطالوا فى الضحك ، وأمين لايدرى مم يضحكون . حتى سأله احدهم : أو اطلعت على النمر ؟

فأخذ يفطن لسهوته البارعة . وحاول أن يصلحها كعادته فقال : أو كنتم تريدون الوقوف عليها ؟

فزادوا ضحكا وركبوه بالعبث من جميع نواحيه ، وجعل هذا يقول له : « لا . معاذ الله . وهل يليق ان نربح الا الجنيه والجنيهين ؟ » وذاك يجذبه من كسائه ويصيح به : « يمينا لو ربحنا النمرة الكبيرة لنقذفن بها فى التراب . وهل ثمانيةعشر ألف جنيه مما يساوى عناء السؤال ؟ » ... وذلك يناديه : اقعد ياشيخ اقعد . لا كانت النمرة الكبيرة ولا كان من يسأل عنها . انما القناعة كنز لا يفنى وانما المعول على الدراهم والملاليم ! » ... وآخر يصطنع الجد ويقول وصاحبنا يتوقع منه الانصاف : « لا . لا يا اخوان . أنا أعرف ما ينتظر أمين ... انه ينتظر كشف الخسائر والغرامات ! »

فلم يجد الرجل مخلصا من هذه الحملة المتداركة الا أن يلوذ هربا بمكتب المواساة ويرجع اليهم بأرقام النمر الكبيرة ويقتحم فى سبيل ذلك زحام المزدحمين الذين تلاحقوا من كل صوب فى

تلك اللحظة ، وتكوفوا حتى أغلقوا مسالك المكتب ... وعناء على كل حال أخف من عناء

وأفلح الرجل ، ووصل الى الكشف ، وكتب الارقام الاربعة

ورجع بها ليقرأها على أولئك المشاغبين الذين لايرحمون ، ولم يبق الا شيء يسير جدا هو الذى فاته أن يحسب حسابه ، وهو قراءة الارقام

فان الارقام الملعونة تآمرت عليه مع المتآمرين وأبت أن تنقرىء لامن اليمين ولا من الشمال ولا من الاعلى ولا من الاسفل ... وراح المسكين يجاهد ويعالج وراحت هى تأبى وتصر على الاباء ... ويحمر وجهه ولا فائدة ! ويحملق ولا فائدة ! ويحاول أن يفسر عجزه ولا فائدة ! حتى رحمه أحد الصحب فانتزع منه الورقة فاذا هى تذكرة ترام ، واذا بالأرقام مكتوبة على صفحة التذكرة التى تمتلىء بالكتابة ، ومن ورائها صفحة أخرى يوشك أن تكون فارغة لم يلتفت اليها أمين لانها ــ لامر ما لايعلمه هو ولا يعلمه أحد ــ غير جديرة بالالتفات !

لقد كانت الحملة الاولى رحمة سماوية بالقياس الى الحملة الاخيرة : فأينما تحول ببصره فثمة لسان بارز أو تحية ساخرة أو تبويخة حاضرة ، وهو صامت يغوص فى أعماق القريحة عن المعاذير والمسوغات ولا تطمئن عزيمته الماضية الى التسليم والاعتراف

•

ومن عادته اذا اعتذر أن يجيء بطرفة اطرف من الاضحوكة الاصيلة التى أثارت الضحك والمشاغبة ، وعرف أصحابه ذلك

منه فطفقوا يحرضونه على الكلام كلما بدرت منه تحفة من تحفه المأثورات ، وبالغوا فى الالحاح يومئذ لينظروا بماذا يتجلى عليه السهو المبارك بعد تلك السهوات الالمعيات ، فلم يخلف ظنونهم آخر الامر فتكلم ، وكان ما قال بيت القصيد وآية الآيات فى ذلك اليوم الخصيب

انقلب من الدفاع الى الهجوم وقال لهم مستجمعا سكينته واعتداده : تترقبون ألوف الجنيهات ! تريدون أن تكسبوا . . ! وهل أنتم وجه مكسب ؟ الله لايكسبكم !! اننى تعمدت ان لا أجيئكم بالارقام ، واكتفيت بما أذكر من أرقام الاستاذ همام وارقامى ولم أحفل بما عدا ذلك ! وهل كنتم من البلاهة والغفلة بحيث تحسبون أننى أراجع لكم أرقامكم ومكاسبكم لاكسب منكم هذا الهراء الذى لاتفلحون فى غيره !

ويلاحظ أنه لم يختلق هذه المعذرة الا بعد ماحصل الصحاب على الكشف وراجعوا الارقام ويئسوا جميعا من الارباح ، ولم يختلقها قبل ذلك مخافة أن يكذبه الواقع عند مراجعة الكشف فيسقط فى يديه

الا أنهم لم يتركوه ينعم بأكذوبته المهلهلة التى ساقه اليها الحرج والنكاية والمزاح وراحوا يقولون له بعد ما أوسعوه سخرا وأشبعوه هذرا : يامكابر ! أتذكر سبعين نمرة بين كبيرة وصغيرة قرأتها منذ أيام ولا تذكر نمرا أربعا قرأتها منذ دقائق ؟! طيب . . . هانحن أولاء معك . أعد علينا النمر الاربع ولك عن كل واحدة جنيه !

فحار وابلس ، وابتأس وعبس ، والقى يد السلم واستسلم ، وزادت تجعيدة حديثة الى جانب كل تجعيدة قديمة فى ذلك الوجه المشدوه

تلك نماذج غير منتقاة من سهوات السيد أمين حديثها وقديمها ، نضعها الى جانب اخلاصه واستقامة طبعه فنفهم المركب الذى ركبه همام من تفويض الرقابة اليه ، واصدق مايوصف به انه كالسفينة التى لها شق متين يكافح الامواج والرياح وشق هزيل محلول الدسر والالواح ، ولا مناص من السفر عليها ولا أمان فى البقاء على الساحل

فأما الرقابة فلا حيلة غيرها

وأما الرقيب فغير أمين لايوجد

وكل مايملك همام من اختيار فهو الاكثار من التوصية والالحاف فى التحذير والمعاودة بالتنبيه . وقد فعل جهده ثم أغمض عينيه ، وأوى الى السفينة وهو يترقب الغور كمايترقب ساهل النجاة

مضحكات الرقابة

ترى لو شهدنا حوادث الحياة كلها دفعة واحدة هل تصعب أو تهون ؟ وهل يقع أثرها فى النفس فاجعا مرهقا أو مضحكا سخيفا مغريا بالهزء والابتسام ؟

تشغلنا الحادثة أياما وشهورا فلا نفكر الا فيها ولا نحسب أن فى الدنيا أمرا جديرا بالتفكير والاهتمام غيرها ، ولا نظن اننا نطيق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق مانحذره منها ، ولا نرضى من احد أن يستخف بها ويستكثر ما نعيره اياها من الهم والقلق والاهبة ، ثم تمضى الحادثة وتتبعها العاقبة بعد العاقبة فتصبح عندنا ـ نحن لا غيرنا ـ تسلية نرويها ونضحك منها ونتفرج بها كما نتفرج برؤية المشاهد الفنية التى تقع لشخوص المسارح الخيالية !

ترى لو رأينا الحادثة وعاقبتها أو الحوادث وعواقبها دفعة واحدة هل تكون كلها فاجعة كما نراها فى حينها ؟ أو تكون كلها خفيفة مسلية كما نراها بعد فواتها ؟ وهل يكون اجتماع الحوادث بمثابة الفاجعة تضيفها الى الفاجعة فلا تقوى النفس على احتمالها ؟ أو تكون بمثابة الشيء يلغيه مابعده فيطفىء برد ها حرها ، ويذهب قيظها بشتائها ؟

سواء كان هذا أو ذاك يخطىء من يظن أن عبرة الايام تعلمنا الاستخفاف بالحاضر كما نستخف بالماضى . فانما هى تعلمنا الاستخفاف بالماضى ولا زيادة ، ولو علمتنا أن ننظر الى حوادث

اليوم كما ننظر الى حوادث الامس لحلت نسيج الحياة وفكت خيوطها ومسحت أصباغها وتركتنا أمام حياة لا لون لها ولا مادة ! كما تجتمع ألوان الصورة الزيتية مرة واحدة بدلا من أن تتفرق فى مواضعها ، فلا ملامح اذا اجتمعت ولا أشكال ولا ألوان !

ان خير ما يتاح لابناء الفناء أن يقلقوا ويضحكوا من القلق بعد فواته فيأخذوا الدنيا طبيعية فنية على هذا المنوال : طبيعية حين يعيشونها ويقلقون بشواغلها ، وفنية حين ينظرون اليها على البعد بعد ذلك كما ينظرون الى روايات الخيال

بدات الرقابة وفاقا لما كان منظورا منها بغير اختلال : أمانة بالغة وشدة لا هوادة فيها ، ثم مضحكات لا تنقطع يوما الاريثما تعود على مثال أغرب وأبعد عن الحسبان ، وهى مضحكات حين تنقضى عليها ثلاثة أو أربعة أعوام ، أما فى اوانها فأيسر ما فيها يغيظ غيظ الجنون

ومن اليوم التالى ظهرت أمانة الرقيب حرفا حرفا فى كل جليلة ودقيقة ، فطابقت رواياته كل ماكان يعلمه همام من أخبار سارة التى تحكيها له طواعية أو التى يتحرى سؤالها عنها فى ثنايا الحديث ، وما كان همام يطلع أمينا على مواعيده مع سارة ولا على الساعة ولا على الجهة التى ينويان اللقاء فيها ، فكانت مطابقة الاخبار لهذه المواعيد وما يلحق بها من الحواشى والملابسات مؤكدة لهمام ماكان يعتقده من صدق امين وصواب الاعتماد عليه

وجاء أثناء الرقابة يوم شات من أيام الزمهريرعاصفقارس مطير ، فأشفق همام ان يتصرف أمين فيستبيح لنفسهاهمال الرقابة فى ذلك اليوم ولا لوم عليه . اذ أين هى السيدةالرشيقة الانيقة التى تغادر دارها بين أوحال الارض وسيول السماء ؟

ان امينا لمعذور اذا هو استباح الاغضاء والهوادة فى مثل ذلك اليوم المكفهر العبوس ، ولكن الذى يعرف سارةلايعرف يوما هو أحق بتشديد الرقابة من ذلك اليوم ، لانهذهالاوقات هى أوقاتها المختارة للتسلل والروغان ، وفرق عشرين‌درجة فى ميزان الحرارة الجوية لايقابله فرق مثله فى حرارة جسمها الفتى المنيع ، لانها لم تعرف قط ماهو مدلول كلمة الزكام فى الآناف والاجسام

اشفق همام من ذاك فهبط من داره ملتفا فى دثاره،وركب ساعة ليبلغ الى المكان الذى يتربص فيه أمين . فألفاهمتربصا حيث يقيم كل يوم

لا خوف اذن من هذه الناحية

ولا غبار على نتيجة الرقابة فى اليوم كله . فقد خرجت سارة فعلا قبيل العصر وعادت الى منزلها قبيل المغرب ، ولم تذهب فيما بين ذلك الا الى منزل صديقة عزيزة لها كانت تناجيها باشجانها وتطلعها على أسرارها ، فلم يشأ همام أن يكون مفرطا فى التوجس والافتراض . ولم يلاحظ الا ان الخروج فى اليوم المطير لزيارة صديقة أمر غريب مريب ، واكتفى بتفسير هذه الغرابة بأنها واحدة من غرابات «سارة»

وبدواتها التى لاتتقيـد بالعرف والاصطلاح .. ولو اتيح له ان يعلم يومئذ ـ كما علم بعد شهور ـ أن الصـديقة العزيزة لم تكن اذ ذاك فى المنزل ولا فى القاهرة لما كبح ظنونه عن الافراط فى التوجس والافتراض

وأخلص أمين لطبعه كما أخلص لصديقه . فلم ينس حق السهوات عليه وبالغ فى أفانينها ومعجزاتها بمقدار ماكان يبالغ فى اجتنابها والاحتراس منها

وكان الرسم المتفق عليه بين همام وأمين أن يقص أمين كل مايراه ويسمعه منذ خروج سارة من منزلها الى عودتها كائنا ماكان شأنه من التفاهة وقلة الدلالة فى نظره . فلا يسـقط شيئا ولا يستهين بشيء وان هان ، وضرب همام مثـلا لذلك لون الرداء وزى الملابس فهو شيء لا يختلف مدلوله فى رأى أمين ولكنه يدل على الكثير فى رأى همام ، وضرب مثلا آخـر أن تركب السيدة الترام فتتخطى مقصـورة السيدات الى مقصورة الرجال ، أو تتخطى هذه وتلك الى كراسى الدرجة الثانية . فلا يمكن أن يكون ذلك بغير دلالة تقترن بدلالة أخرى فتعين على جلاء الحقيقة ، وهكذا من أمثال هـذه الطفـائف والقرائن التى لا غنى عنها للوصول الى نتيجة من وراء الملاحقة والرقابة

ولم يكن فى سرد هذه المشاهدات صعوبة على أمين لانه كان مطبوعا على التقاط ما يبصر ويسمع ومحاكاة ما يلتفت اليه من اللهجات والحركات والاشارات . فجاء يوما بعد مراقبـة

نهار كامل بحكاية ماشك همام وهو يسمع أوائلها أنه لن ينتهى الى أواخرها حتى يضع يده على لباب الحقيقة ويتطرق منها الى النبأ اليقين

قال : لقد خرجت السيدة عصرا تلبس رداء عنابيا ومعها طفل صغير ، فذهبت الى بيت صعدت الى دوره الاعلى ثم نزلت ومعها سيدة تكبرها بعدة سنوات ، ومضتا الى دار من دور الصور المتحركة فى شارع عماد الدين فجلست أنتظرها على القهوة الملحقة بالدار ، ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت وحدها وليس معها الطفل ولا السيدة ! ..

ماشك همام حين وصل أمين الى هذه المرحلة من حكايته أن فى الامر شيئا وانه يتعقب الاثر الصحيح الى النتيجة الصحيحة

نعم ان أمينا أخطأ اذ لم يدخل معها الى قاعة الصور المتحركة ولكن خروجها بعد ذلك قد أصلح ذلك الخطأ وعفى عليه .. وما يراه بعد الخروج هو المهم ، وليس ما يراه فى القاعة ان رأى هناك مايستحق الالتفات .. والا فلماذا تخرج بعد نصف ساعة ؟ ولماذا تخرج وحدها ؟ وذلك الثوب العنابى أليس هو الثوب الذى تحب أن تتزين به لخلوتها وتحسبه أجمل عليها من سائر ثيابها ؟؟

فالحقيقة اذن على مدى خطوتين ، ويستر الله فلا يعثر أمين باحدى سهواته فى احدى هاتين الخطوتين . وماذا عسى أن يعثره بعد هذا المدى ؟ وكيف يعثر ياترى ؟ ذلك بعيد ...

واغلب الظن أن الامر سينكشف وأن الغاشية ستنجلى ، وأن ليل الشكوك والهواجس المضطربة سيسفر بعد لحظة عن فجر صادق بين

ـ ثم ماذا يا أمين ؟

ثم سهوة من تلك السهوات التى تنقض فى صدمة المباغتة ، والتى لا ترد على البال ولا تقع فى الاوهام ، والتى يخيل اليك أن أمينا لم يعثر بها الا لانه تعمد ان يعثر بها واصر على تدبيرها ، لان ما صنعه هو الشيء الوحيد الذى لا ينتظر أن يكون

اعتدل أمين فى مجلسه واتكأ على عصاه ، وقال فى راحة الذى لم يضيع أقل فرصة وأقصى احتمال :

ـ أن السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة!

ـ ويحك ! والى اين ذهبت

ـ لا أدرى

ـ كيف لا تدرى ؟ الم تتبعها ؟

ـ لا . لاننى ما شككت فى أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود . . ولا يليق أن اتبعها

فانتفض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : يا أخرق ! اليس فى دار الصور مايغنى سيدة مهذبة عن الخروج الى منعطفات الطريق ؟

ففطن أمين ساعتئذ لسهوته « الجبارة » . . وأخذ فى تحمل الاعذار والمسوغات ، وهو ـ على صدقه ـ لا يتورع فى هذه

الازمات المحرجات عن أكذوبة صغيرة يتقى بها التهرئة والتسخيف أشد من اتقائه الملامة والتعنيف ، وقال : الواقع انني صادفت والدى عابرا فحيانى وجلس معى وخشيت ان أنا تبعت السيدة فجأة أن يستريب ويتكدر . فلبثت فى مكانى على رجاء أن تعود

ومن الجائز حقا أن تكون السيدة قد ذهبت ولم تعد لانها واعدت صاحبتها ان تلقاها فى مكان اتفقتا عليه . ولكن الى أين ذهبت ؟ ولماذا ذهبت ؟

هنا الحيرة التى لا تدع للذهن أن يتجه خطوة الى اليمين حتى يرجع فيتجه خطوة مثلها الى الشمال . ثم يتبلد حائرا فى موقفه لا الى هنا ولا الى هناك

فى الحى الذى قصدت اليه بيوت فيها مخادع محجوزة لطلاب الغواية ، وفيه أسرتان بينهما وبين سارة ولاء وثيق ، وبعض الاطفال فى احدى الاسرتين مريض . ويجوز أن تكون سارة قد ذهبت الى مخدع من مخادع الغواية كما يجوز أنها ذهبت للسؤال عن الطفل ولم تصطحب طفلها خوفا عليه من العدوى ، وماعدا ذلك من الاحتمالات يتقابل ويتوازن بحيث لا ترجح كفة على كفة ، وان رجحت احدى الكفتين فانما ترجح بالتخمين والتقدير ، وليست الرقابة للتخمين بل لليقين القاطع المفصل الذى لا لبس فيه

ويجىء أمين فى يوم آخر بنبأ من هذه الانباء التى تدنو بهمام الى مدى خطوتين من الشاطىء ثم تقذف به فى لمحة عين كما

يقذف الموج الغريق الى مدى آباد لا تعبر ، وقد حدث نفسه بالنجـــاة

ذهبت السيدة الى دار الصور المتحركة ولقيها شاب مديد القامة ، فحمل الطفل وقبله ودخل معها الى الدار وودعها بعد الانصراف الى أن ركبت الترام الذى يصل بها الى المنزل . فتبعهــا أمين ولم يتبع الشاب الذى هو موضـع البحث والسؤال ! !

وتضاربت الظنون فى وهم همام حتى كانا بعد يومين يسيران هو وأمين فى الطريق فأوشك أمين أن يقفز من جانبه ويعدو وراء شاب مقبع (١) طويل وقد صاح فى صوت مسموع :هذا هو الشاب !

فلم يمنعه همام أن يستمر فى صياحه وعدوه الا بمشقة ، وأدرك الشاب وتبينه فمن ذا رأى أمامه ؟ . . اخاها !

ولا ذنب لسهوات أمين فى هذه القصة الا فى غفلته عن متابعة الشاب وايثاره أن يتابع السيدة بعد ركوبها الترام . . كأنما المقصود أن يعرف منزلها لا أن يعرف من كان معها ، أما البقية فالذنب فيها ذنب همام لانه كتم عن صاحبه كل ما يتعلــق بسارة غير شــخصها ومسكنها . حذرا من سهواته لا حذرا من نياته

ولزمت سارة مسكنها يوما لا تريمــه الى زيارة ولا الى

(١) يلبس القبعة

مسرح ، وتلك نادرة لم تتكرر فيما عدا أيام حفلاتها وولائمها غير مرات معدودات . فليس لسارة عالم تعيش فيه غير عالم الدنيا الواسعة ، وعالم الحب والمحبين

أما عالم الضمير الذى يروده الانسان وحده ويأنس فيه الى التفرد والوحشة فذلك أبغض العوالم اليها وأثقلها وطأة عليها . لاتمكث فيه هنيهة الا باغراء كتاب ، وقلما يكون الكتاب عندها الا منفذا الى الدنيا الواسعة ، ودنيا الحب والمحبين

فسنحت لهمام خاطرة ان يجرب الرقابة داخل المنزل لعل هناك احدا تحوم حوله شبهة ويصلح لاتجاه المظنة ، ولما سأل أمينا عن النور فى جناح سارة من أين كان مصدره فى ذلك اليوم علم أنه كان يصدر فيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة من الحجرة التى يعلم همام أنها حجرة النوم ، وهى حجرة لا تأوى اليها سارة الا لتنام ، ولم تتعود أن تستقبل زوارها ولا أن تقرأ فى غير حجرة الاستقبال ، ولم تختل تلك الوتيرة سنوات كان همام يجاورها فيها ويلم بجميع عاداتها وحركاتها فى منزلها . فلماذا تختل فى ذلك الموعد من المساء ؟ لماذا تختل القاعدة فى الموعد الذى تكون فيه على انفراد بعد نوم الطفل وانصراف الخادمة ؟

ربما كانت الرقابة داخل المنزل الزم وأجدى من الرقابة خارجه ولو يوما من الايام . وقد أدى أمين رسالته فى هذه الرقابة الجديدة وخاب كما خاب فى غيرها ، لولا أن الخيبة هنا كانت مشفوعة بخطر الضرب المبرح والفضيحة الشنيعة ، فما

سلم منه الا بأعجوبة من أعاجيب السياسة !

ذلك أنه ولج المنزل متسللا وصعد السلم متلكئا ليقـــرأ الاسماء التى على الابواب . ولمحه فتى يهبط من أعلى المنزل فظن أنه يتلصص أو يتجسس ، وليس التجسس ببدع فى ذلك الحين

فانتهره الفتى مزدريا ، وناداه متأففا : مالك تتسكع على الابواب ياهذا ؟ ماذا تريد ؟

ولم يكن أمين بالذى يتراجع اذا هوجم ، ولابالذى يلين اذا خوشن . وقد تملكه الربكة اذا خوطب فى رفق وأدب واضطر الى تدبير الجواب وتحضير المعاذير . فأما اذا قوبل بالتوقـح والاهانة فلا ربكة ولاعناء . . انما هى دقة بدقة وصيحة بصيحة ، وصفعة بصفعة ، اذا استطرد اللجاج الى هذه النهاية

فما حفل أمين بالفتى ولا زاد على أن نظـر اليه متجهمـا متجمدا وقال : امض فى سبيلك . فليس هذا من شأنك ! !

ولقد دهش الفتى والتفت اليه مذهولا وهو يتمتم : ليس من شأنى ؟ كيف ؟ اننى أسكن هنا . . ان فى المنزل آلى وحرمى! يالها من أعاجيب ! يالها من صفاقة ؟

ولكنه مع ذلك نزل . وسمعه أمين ينادى على البواب من أقصى الطريق ويقول له : أين انت ؟ وماذا عساك أن تصنع اذا كنت تسمح لهذا الجاسوس أن يقتحم البيت ويتسمع على الابواب ؟

جاسوس ؟

لقد سلم أمين بفضل الجاسوسية والخوف من الجاسوسية، ومن ذا يضرب الجواسيس ووراءهم قوة الشرطة وقوة الدولة وكل قوة تخاف فى تلك الايام ؟

سلم امين من الضرب وهبط السلم يتهادى غير هياب ولا وجل ! ! والهمه الله أن يشمخ بأنفه ويزجر البواب قائلا : أنتم تأكلون بغير عمل . أنتم لا تستحقون أجوركم . . لقد صفقت وناديت فما أجابنى أحد . ولقد حاولت أن أراك لاسألك عن جناح خال فما اهتديت لك الى شبح ، ولو سكنت فى هذا البيت لما أبقيت عليك !

فقبع البواب واستخذى ، ولاح له أنه غانم سالم اذا انجاب هذا الرجل السليط سواء كان جاسوسا أو باحثا عن مسكن ، وتركه ينفتل لطيته وهو يتبعه بقوله : معذرة يابك ! لا بأس يابك ! حقك علينا يابك !

وافترقا وكلاهما يحمد الله على النجاة

الا أن أمينا قضى منذ تلك الساعة على مستقبله فى الرقابة مضروبا أو غير مضروب وناجيا أو غير ناج ! ! فما كان فى وسعه أن يتراءى وهو آمن على جلده « حول مكان الواقعة » كما يقولون فى لغة الشرطة قبل أن تنصرم ايام وايام . . . وشاءت المصادفات أن لاتكون الخسارة عظيمة . فان عناء الرقابة قد ضاع بغير جدوى ، وأن أيام الاجازة قد قاربت الانتهاء

القطيعة

حصلت القطيعة ولما تسفر الرقابة عن نتيجة

حصلت ولم يردها أحد ، ولم يغتبط بها أحد ، كأنها مخلوق قائم بمعزل عن أبويه : تريد له بنيته المستقلة ما تريد ولا يريد لنفسه أو يريد له أبواه : يمرض وينحل ويموت وهو لا يريد الموت ولا يريده له القوامون عليه . بل كأنه الجنين الذى استوفى حمله فلا بد له من الظهور ولو ماتت أمه وانفطر قلب أبيه

أولم يقل همام انه لن يفرط فى هوى سارة ولن ينفصل عنها الا وهو واثق كل الوثوق من خيانتها ، وعاجز كل العجز عن صيانتها ؟

أو لم يقل أنها حلية مونقة ان غلت سومت بكنوز الارض وذخائر البحار ، وان رخصت هانت عن السوام والصيان ؟

أولم يقل ذلك ويعتزم العزم كله ويستجمع النية كلها على أن لا فراق ولا قطيعة الا وقد عرف ما تساويه من قيمة وما تستحقه من غيرة وضنانة

بلى ! قال كل ذلك ، ونوى كل ذلك ، ولكن الحب الذى أوحى اليه كل ذلك قد فسد وانحل ومات ، ولم يبق الا أن يدفن ! وأن يحمله الى الدفن أبواه ! وهما آخر من يود له الموت ، ويخف به الى ذلك المصير

لو كانت المسألة قضية تنظر وحكما يصدر بعد نظرها لكان

عجيبا أن تثبت القطيعة قبل ثبوت الخيانة ، وأن تقع العقوبة قبل وضوح الجناية

ولكن من هو القاضى هنا ؟ ومن الجانى ؟ ومن الفريسة ! ومن صاحب الفصل وشارع القانون ؟

هنا قضية لا تلمح فيها قاضياحتى تراه جانيا وتراه فريسة وتراه مقضيا عليه ، فلا حكم ولا براهين ولا شريعة ! بل حادث من حوادث القدر ينقض كما تنقض الصاعقة أو يشتعل كما تشتعل النار

هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذآ تنوى وماذا تريد ؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد أن تعمل . كالذى يهرب من السيل ليقع فى الهاوية ، وكالذى يهرب من البركان ليقع فى اللجة الزاخرة ، وكالذى يهرب من النمر ليبتلعه التمساح ، وكالذى يهرب من الرصاص لتنوشه الرماح . كل ما أنت قادر أن تجزم به هنا أنه لن يستطيع البقاء حيث كان .. وهل يستطيع البقاء حيث صار ؟ كلا ! ولا هنالك يستطيع البقاء

فاذا سألت لماذا اعتزم همام القطيعة بعد أن كان يعتزم التربص والمطاولة ــ فليس سبيلك أن تعلم أنه آثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها ، وانما سبيلك أن تعلم أنه لا قرار له على ما كان فيه ، وانه مدفوع الى الهرب منه كما يندفع الهارب من النمر الى التمساح

▱

فى أيام الرقابة وبعدها بأسابيع قليلة تكررت الزيارات

وتسابق همام وسارة فى الاستزادة منها وهما يتكلفان ، ولا يجهلان أنهما يتكلفان

أجل ما كانا يتمليانه من سويعات الهوى فى تلك الايام انما كان بالقياس الى هواهما الخصيب المطواع كالثمار المحفوظة فى العلب بالقياس الى الثمار على أشجارها بين غياضها وأنهارها

ولم يكن همام يصور لحدسه كيف تشعر سارة بتلك السويعات المصطنعة . ولكنه هو كان يشعر شعورا لا يزال يعاوده ويبرز أمامه كلما جهد فى تبديله والاشاحة عنه بخياله: كان يشعر كمن يلهو ويتلاهى على مقربة من جنازة وفى جوار مقبرة ، فمن حيثما أقبل أو أعرض فهنالك ظلام الموت ،وكآبة الفناء ، وسوانح الاحزان

ومن أعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم ــ سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقى بلفيفة الا اومأ الى من حوله فى طلب لفيفة أخرى

وما كان الشيخ يصنع ذلك قبل أن يثقل عليه السقام ويتدانى منه شبح الحمام . ولكنه كان يدخن مرة فدخل عليه همام عائدا ، واستبشر قائلا : بركة يا عماه ! ان الذى يتطعم الدخان يتطعم العافية ، وأراك تتقدم الى الشفاء ان شاء الله

ومن تلك الساعة لم تعد للشيخ من وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين . فهو يتبع اللفيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها ، وانه ما دام يشتهيها فهو على رجاء فى العافية والبقاء

لقد كان يدخن ويبالغ فى طلب التبغ خوفا من خيال الموت لا سرورا بموالاة التدخين • وما أقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام ؟

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب أضعاف ما أحرقا فى عنفوانه وانطلاق طوفانه • ولكنهما يفرطان فى الحب ويتكلفان الافراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه ، ولاقبالهما على شتائه الاجدب لا لاقبالهما على ربيع بهجته ورواءه

وكانا فى عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار ، ويتغاضبان ولا يجفلان من الغضب ، ويختلفان ويلحان فى الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والالحاح : جسم فتى قوى فماذا تضيره هبة من عاصفة أو لفحة من هجير

فلما شاخ الحب أجفلا من الغضب والخلاف ، كما يجفل الشيخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه • فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران على خصام

سرورك مشكوك فيه ، وان غاب عنه الشك فهو هزيل

وألم حق لا شك فيه ، ثم يتلو اللقاء فيزيد همهما علامة من علامات الخيانة التى ليس بعدها من اقناع عنده غير يقين اللمس والعيان

وانهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطة والمراء اذا بالغضب يدفعهما فى شلاله بين صخوره وأوحاله فيندفعان ويندفعان كأبشع ما يكون الهياج والثوران ، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعة وبهتان

كلا ! لاجدوى من المراء . لابقاء لهذه الحال . لا مناص من الفراق ان كان لا مناص منه . . ولا مناص !

كانا يتلاقيان ـ اذا لم يتلاقيا في المنزل ـ عند مفترق طريق في الضاحية ينشعب يمينا الى ناحية الصحراء ، ويسارا الى ناحية الاندية ودور الصور المتحركة ، وكانت تلمحه مقبلا فتسبقه خطوات الى حيث تواعدا من قبل : فاما في الصحراء أو في بعض الاندية يدخلانها على انفراد

وقد تواعدا ـ بعد أسبوع من تلك الغضبة الثائرة ـ على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق . ليعطيها أوراقها وصورها وذكرياتها ويسترد منها أوراقه وصوره وذكرياته ، ثم يفترق كل منهما في طريقه الى حيث يختفي من حياتها وتختفي من حياته .

وقبل الموعد بساعة أخذ في جمع تلك الاوراق ومراجعتها ليعلم منها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح فيا لله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة ! وكم تختلف المعايير والاحجام في موازين الاكف والاذهان : لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة ، ولكنه كان يحمل الورقة منها وكأنما يزحزح جبلا راسخا يشل السواعد والاقدام دون صخرة واحدة من صخوره .

ومشى الى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا اكراه ! مشية الرجل الذي يسعى بقدميه الى غرفة الجراحة ليبتر عضوا من

أعضائه غير آمن أن يكون في بتره الموت ، أو مشية الامهات اللائى كن فيما مضى يحملن فلذات أكبادهن الى مذبح الارباب ، قربانا غير رخيص ولا مزهود فيه

وسبقها الى الموعد فانتظرها دقائق معدودات لاحت له كأنها آباد ، ولكنه في الواقع كان لا يتمنى لها الفوات

ثم أقبلت في ثوبها العنابى وطرتها المشتهاة ! ونظرت اليه وهمت أن تنحرف الى ناحية الصحراء ... لم ؟ انهما اتفقا على اللقاء لحظة في مفترق الطريق يأخذ منها ويعطيها ولا حاجة بهما الى مراجعة . وكانت الطريق في تلك الساعة خالية الا من عابر بعيد أو عابرة بعيدة . ففيم انحرفت الى ناحية الصحراء ولو شاءا المراجعة هنالك لما أعانهما غبش المساء؟ انه حكم العادة على ما يظهر . أما هو فكل ما ساوره في تلك اللحظة خشية الانفراد والامن من الانظار ، وخشية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة أو عبرة أو نظرة وجيعة ، وخشية الوهن والتردد والارجاء ، وخشية العودة من البداية الى التيه المفزع الذى أشرف في تلك اللحظة على النهاية . وتلك جرعات لا يطيب للفم أن يترشف منها كل يوم

أخذ منها وأعطاها . وسلم ولم تجبه أو سلمت ولم يجبها ، أو نسيا السلام والوداع معا . لا يذكر ، وافترقا في طريقين متدابرين

لو كان همام في غير ذلك الموقف لتذكر وقال وتدبر : تذكر مفترق الطريق بالامس وتذكر مفترق الطريق في هذا المساء ،

وقارن بين لقاء قلما يضن فيه بشيء ولقاء قلما يجاد فيه بسلام الوداع الاخير . ولكنه كان مغمور الفؤاد فى جو من الغم واليأس كجو الضباب الكثيف : لا تسترسل فيه العين الى مدى بعيد ولا ترى ما حولها الا فى غلاف من نسيج الاطياف، وكل ما يذكره بعد ما افترقا أن جسما غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب

وسار فى وجهة المنزل وكأنه يريد أن يبتعد منه لا أن يدنو اليه بخطاه ، وفى يده حقيبة صغيرة لا يدرى ماذا يصنع بها ، ويزعم أنه يود لو ألقاها فى عرض الصحراء لولا ما فيها من حديث يصونه عن الافشاء ... يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشعر أن ساطيا لو سطا على الحقيبة فى تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام

ثم دخل المنزل وتهافت على أقرب كرسى فى أقرب حجرة ، فلو شهده شاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادما من مسيرة أيام لا مسيرة لحظات ...

وكان فى المنزل عشير قديم يعلم أين ذهب ومن أين عاد . فلما طال سكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه: علام أنت آسف يا صاح ؟؟ هل تركت فيها من بقية وطر تشتهيها ؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها ؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد أراحك الله من رفاتها بعد أن نعمت بروحها ولبابها ؟

عزاء حسن حين تكون المرأة التى تفقدها مائدة تفرغ منها وقد أتيت على آخر لقمة فيها . أما حين تكون جزءا من الحياة لا تنفصل الا فصلت معها شطرا من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك أضعف العزاء ، بل هو نقيض العزاء

انما يعزيك الزميل الذى تحسنه قريبا منك بشعور مثل شعورك ، ولقد يغنيك من عزائه احساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم ، دون كلام ولا ايماء

أما الكلام الذى سمعه همام من صاحبه وهو فى جواره فقد تركه يصغى اليه وكأنه يتسمع ألفاظا مغلقة من هاتف لا يراه



من هی؟

من هى سارة ؟

من هى الفتاة التى مشينا معها هـذا الشوط ولا نعرفها ، والتى رأينا منها خطوطا ولم نر منها صورة ، والتى قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل ، وحروفا كثيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الاعجام (١)

هى شيء يعرف ولا يعرف ..

أتتكلم بلسان الصوفية ؟ كلا . بل بلسان العرف المقرر والمشاهدات اليومية ، فان سارة بنت من بنـات الواقع الحى الملموس ... وبنـات الواقع هن اللواتى نعرفهن جيـدا ولا نعرفهن جيدا ، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منهـا شيء مجهول .

وليس بالنافع أن نصفها كما كان يراها همام فى أيام صفوه وهيامه ، أو نصفها كما كان يراها فى أيام نفوره واشمئزازه ، أو نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائم ، أو كما كان يراها وهو على البعد مشوق ، ولكننـا قد نصفها مزيجا من جميع هؤلاء فنخلص من وصفها الى صورة تشبه «سارة» التى خلقها الله ، وتشبه سارة التى يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات .

---

(١) اعجم الكتابة وضع نقطها وحركاتها .

هى جميلة : جميله لامراء ، ليست أجمل من رأى همام فى حياته ولا أجمل من رأى فى ايام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالا لا يحتفظ بغيره فى ملامح النساء . فلو عمدت الى ترتيب الف امراة هى منهن لنظمتهن واحدة بعد واحـــدة فى مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة عن الصف وحـدها ... وان كنت لا تنكر ـ ولا تبالى أن تنكر ـ أنها تأتى بعد مئات

لونها كلون الشهد المصفى يأخذ من محاسن الالوانالبيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة

وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان الاسرار ولا تخفيان النزغات : فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة

وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظـام ، ولهـا ذقن كطرف الـكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر • وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيدكأنه الحلية الفنية سبكت لتنســـجم بينهما وفاقا لتمام الحسن من كليهما . فليس هو جيدا كأى جيد . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام

يتخطاها من يراها على عجل ، ثم يعود مدركا أنه قد تخطى شيئا لا يفات ، فليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق اليها ، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجيـــا فى سبيلك ... قوم بين هذا وذاك ، أو طراز آخر غير هذا وذاك

لو تكفل بها مدير معهد من معاهد التجميل الحـديث لخفف

شيئا من قوامها الرداح بين الربعة والطويل ، قبل أن يبرزها في معرض الرقص والرشاقة

ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث ، قبل أن يزفها الى الشاهنشاه

حزمة من أعصاب تسمى امرأة

وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة

استغرقتها الأنوثة فليس فيها الا أنوثة. ولعلها أنثى ونصف أنثى ، لانها أكثر من امرأة واحدة في فضائل الجنس وعيوبه ، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة

ولقد يخيل الى الانسان فى أحايين أن يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق ، وأن يسوى تكوينا بتكوين ، ويمزج عنصراً من الابدان بعنصر ، فامرأة يتممها رجل ، وآدمى يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام فتى ، وأبوة أحرى أن تنتقل الى أمومة، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب

أما هــــذه المخلوقة فلو انتقل عصب منها الى تكوين ليث غضنفر لبقى هنالك عصب أنثى بين جميع ما حــوله من ألواح وأمشاج . ولو بقى ألف سنة

ولو أنها تفرقت بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الاجسام

شغلتها جواذب الجسد قبل أن تفقه معناها وتسمع باسمها ومسماها . فلما كانت بنية دارجة فى المدرسة ذهبت يوما الى

كرسى الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشر التى حفظتها ، وتتوب من مقـارفة الخطيئة التى دعوها فى المدرسة « ترفا » على سبيل الكنـاية ! فذعر الكاهن ولم يصدق ما يسمع • واستعادها مرة بعد مرة وهى آخذة فىذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصوت ... ماذا ؟ فيما دون العاشرة وبين جدران مدرسة ليس فيها الا البنـات تزل بنيـة لم يكعب ثدياها وتقترف أم الخطايا التى يقترفهـا النساء والرجال ؟

وما سكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بدا له من لهجتها أنها لا تفقه ما تقول ، وأنها تلهو بمحاكاة المعترفات لانها أحبت أن تصنع مثل ما يصنعن ، وبحثت عما تعترف به فلم تجد غيرهذه الخطيئة التى تجهلها . وقد نجت الخاطئة الصغيرة بعركة أذن وجيعة ، ثم ذهبت تسائل الزميلات ما هذا الذي ذعر منـه الكاهن ذلك الذعر الشديد ؟ فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات

قال لها همام وهى تحكى له حكايتها : لقدحسب لكاعترافك قبل أوانه •• ولئن اعترفت بالامس وما أخطأت فلأنت اليوم تخطئين وما تعترفين

وعاشت بعد ذلك تنظر الى خطايا الاديان نظرة المرأة الوثنية التى نشأت قبل أن ينشأ الانبياء . فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك فى دينها ، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين ، عن نزعة طبيعيـة فيها لا عن بحث ونقاش واطلاع ، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة ان لم يأكلها

جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لانهم منعوه ، وليس هو بالملوم لانه اختلس ما لابد له من اختلاسه !

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الاعياء والبكاء

لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من عـــلاقة ، لو حصلتها بالتعليم والتلقين لاستغرقت أعمارا الى جانب عمرها فى القراءة . ولكنها تفطن لما فى نفس المرأة لانها امرأة وتفطن لما فى نفس الرجل لانها امرأة ، ويعينها ذكاء موصول بالفطرة، وتعبير يتضح فى ذهنها وان لم يتضح بعض الاحايين على لسانها

والحق أن هذه الفتاة كانت فى معرفتها بطبيعتها الانثوية اعجوبة ، وكان همام يسمع منها ماقل أن تفهمه امرأة وان شعرت به ، وقل أن تقوله وان فهمته ، وقل أن تحسن التعبير عنه وان أرادت أن تقوله . اذ المعهود فى المرأة انها تشعر ولا تفهم شعورها ، أو أنها تفهمه ولا تعمد الى الصراحة فيه ، أو انها تعمد الى الصراحة ولكن لا تحسن التعبير . أما هذه الفتاة فعلم الانوثة عنـــدها كعلم الحســـاب عند بعض الاطفال الذين يجمعـــون ويضربون عشرات الارقام بغير تدوين ولا مراجعة : مسألة بداهة سهلة لا اجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم !

فى سهرة من سهرات الصور المتحركة شـــاهدا رواية من روايات الغرام بين الكهول بطلها « ادولف منجو » الممثـــل المشهور بتمثيل هذه الادوار ، أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات .

وكان « منجو » بغيضا الى همام كما هو بغيض لى كثير من النظارة فى دور الصور . فأراد همام ان يناوىء صاحبته وقال لها : أما والله ان النساء لسخيفات آن كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوة عندهن ؟

فأجابته متحدية : ولم لا تكون له هذه الحظوة عند النساء ؟ الا تعجب المرأة الا بفتى صبوح أو بفتى متين الاركان ؟ هـــذا خطؤكم معشر الرجال · آن الفتيان الحسان الاشداء قد يفتنون المرأة ، وقد يخلبونها ، وقد يهيجون نفسها ولكنهم لايقربونها اليهم ولا الى نفسها . ان أحدهم لينظر اليها كأنه غريب يمشي فى بلد غريب يخشى أن يتقدم أو يتأخر ، متهيبا يعديها بالتهيب ، فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل التقريب بينهما بعد ذلك

أو ينظر اليها نظرة القانص الفاتك فيربكها ويزعزع شعورها ويوقع الهزيمة في سريرتها

أما الرجل الخبير بالنساء من أمثـال « أدولف منجو » فانه ينظر اليها بعد أن نظر الى مئات من قبلها فاذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء، واذا بها تحس كل الاحساس أنه يعرفها كما تعرف نفسها فى مخدعها ، واذا هى قريبة منه لا تحتاج الى تقريب ، بل قريبة منه بوحى لا تدركه ولا تلتفت اليه ، قريبة منه كما يكون الرجل والمرأة فى الخلود بعد عشرة أعوام

والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك

عليهن ، فاذا أحست المرأة بالفتور منـــه فى الطلب والمغازلة خشيت أن تكون هى المعيبة المجفوة فى نظره بالقياس الى من عرف من النساء ، ولم تتهمه فى ذوقه بل اتهمت نفسـها فى جمالها و« جاذبيتها » كما هو دأب المرأة من سوء الظن بنفسها أمام هؤلاء الرجال ، ونشأت عندها الرغبـــة فى اجتـــذابه واستطلاع رأيه ، واستسلمت له فى سهولة وطواعية ، لعلمها أن الحيلة معه لا تخفى عليه . بعد ما شهد الكثير من حيل النساء

هل بحثت سارة هذا الموضوع بحث الفلاسفة ؟ هل قرأته فى كتاب من كتب الصور المتحركة ؟ يجوز ! ولـكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات

وتمييزها لملامح الرجولة ومظـاهرها تمييز لا يخطىء لانه أشبه بالغريزة التى لم تعرف غير الصواب لانها لم تعرف غير صواب واحد . كصواب النحلة فى بناء الخلايا.

فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية لانها لا تشعر لهم بوجود ، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعا فى رجـــولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز ، والطغيان القابل للرحمة والحنان ، وقبس من أريحية الخيال ، ونفحة من حماسة الروح تحسبان فى الزينة عرضا ولا تضمنان الرجحان فى الميزان

ولهـذا تضل بعض الطريق الذى تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات فى النهار ، لانها تلقى كل اعتمادها على صاحبها

حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشى بقدميه ، وأبغض من تبغض ـ وهى قارئة حصيفة ـ أولئك النسوة الثـــــائرات على آلرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية ، فهى تقول انها لو سئلت أن تكون رجلا ما قبلت ، وأنها لوكانت تثور لثارت على الرجال لانهم يستمعون الي هذا الهراء

ومن لوازمها التى لا تفارقها أنها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة آلا كان عطفها فىجانب الرجل وان غدر وان خان ، ويشق عليها منظر العاشق الموله المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده : ما من امرأة تستحق هذا آلعذاب !

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء ، ولكنها تكره التدليل السخى الفياض كما تكره التدليل المعســـــول الناصع الحلاوة ، وانما تحب أن يقطر لها التدليل تقطيرا وأن يشاب لها أبدا ببعض التوابل والافاويه

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها :

أتحزن على اذا مت ؟

فلم يدر كيف يجيبها ، ولكنه قال : هذا سؤآل ســـــابق لأوانه يا بنية ؟

قالت : ستبكى ولا شك . لا أسألك فى ذلك ... ولكن كم عبرة يا ترى تميزنى بها على من بكيتهم ؟

قال وهو لا يظهر آلمرح ولايحاول أنيكتمه : أراجع ماعندى من « رصيد » العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل !!

قالت : أنت لا تريح !

قال : ولكنى أراك مرتاحة ... أأنت تموتين ! ومن الذى يأذن لك أن تموتى !

وكانت مرتاحة حقا لما سمعت ، ولو أنه أسمعها غيرذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليـــه ، ولكنه اذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها، وضمن أن لا تفسد عليه صفاء الساعة التى هى فيها

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر مرة على أبعد تقدير ، ويرشحها على أثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التى « تؤهلها » لها تلك المعارف الكثيرة .. الا انه استقر آخر الامر على انها أصلح ما تكون مديرة للاضاءة فى مسرح تمثيل

لانها تعلم مواقع الرؤية علما لا خطأ فيه ، وربما وقفت فى المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شتى، ثم لاتبالى أن تمازح صـــاحبها وتغريه بمزاحها وتجميشها . فاذا أحجم وتردد ضحكت منه ساخرة ، وأولعت بتعييره والتهكم عليــه ، لانه لم يفهم لاول وهلة كما فهمت هى أن الاشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها !!

تعلمت وهامت بأوربا فأوربا عندها نبى معصوم : كل شىء فيها خير من كل شىء فى غيرها، وهذه التى تغفل عن الاديان حتى يخيل اليك انها لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء

ـ هذه الوثنية فى عالم الدين تراها فى عالم الأزياء فتعلم لاول وهلة أنهـا لا تغفل لحظة واحدة عن وحى باريس ومناسك الازياء فى آلعالم الاوربى بأسره،لأنها تتحرج من وضع شريط فى غير موضعه أو لبس زى فى غير موعده تحرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده فى جحيم عذابه

وكان صاحبها همام على نقيضها يهزأ بالعـرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو فى المجامع العامة . لحق بها ليلة بدار الاوبرا وهو فى ملابسـه الصباحية فكادت حين رأته الى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتها به ومصاحبتها اياه ، وجعلت تنظر اليه نظرات فيها من الاستغراب والاستهوال والاكبار لهذه الجرأة أو لهذا التهور بمقدار ما فيها من الاسف والحنق والاستنكار ، ومالت اليه تقول : ماذا يظن هؤلاء الناس ؟ انهم لن يقولوا الا أن هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل ! قال متظاهرا بالاعتذار وقد علم أن المعابثة أنفع أساليب الاعتذار معها فى هذه الحالة : لا عليك أيتها الفتاة المسكينة . فى المرة التالية سـأحمل فى يدى كسوة السهرة لأدفع عنك هـذه المسبة ... الا أنهما ـ حين خرجا من الدار ـ غلب عليها حب التحدى على الرغم من رغبتها فى التستر والمداراة ، فخرجت وهى آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو أو تغيظ المتفرجين !

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ ؟ ان شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور ، على شريطة أن يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها ويفهمه ، وأن تقرأ فى ديوان بيرون قصة دون جوان،

وان تقرأ فى القصة أنباء خلاعته وعبثه بين مخادع الجوارى الحسان فى قصر السلطان ، أما شوبنهور فيجب أن يكون كله على وتيرة مقاله فى الحب والشهوة بين الذكر والأنثى ، وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع !!

عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغل واحد ، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات ، لا لأنها قاسية ولا لأنها مغلقة جاسية ، ولكن لان مكان الشفقة مشغول مستغرق ، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة أن تنفذ اليه أو تطغى عليه

وكأن الطيارة المحلقة وكأن نزواتها هى القوة الدافعة لها فى الفضاء . فاذا دفعتها فهى ناهيك من حركة وصعود وهبوط ، وان وقفت لحظة فهى حجر ملقى على التراب ، ولسان حالها فى العواطف الانسانية أن تقول لرجلها : أشفق أنت وتمرد على الظالم وأعن بما تشاء ، وأنا وراءك حيث تقودك قدماك

وهى وثنية فى مقاييس الأخلاق كما هى وثنية فى التدين ، لا تؤمن بالعصمة الانسانية فى احد ولا فى صفة ، وشديدة الايمان بضعف الانسان مع أضعف المغريات ... استطرد الحديث يوما الى جان دارك فقالت هازئة :

ـ كم رجلا يا ترى عرف انها عذراء ؟!

فقال لها همام :

ـ انها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات

فقالت : لقد شهد لها أضعاف هؤلاء بالمعجزات ، فهل تصدق معجزاتها ؟

وكان من دأبها أن تحب الغلبة فى المناقشة على طريقة كل أنثي مع تنوع الأسلوب والعبارة ، فاذا عز عليها الجواب راغت منه وغيرت مجرى الحديث ، أو تقول حينا : أسكتنى وما أقنعتنى ! وحينا آخر : ناقشنى يا أخى ناقشنى . ولكن بحق السماء والارض عليك لاتكتفنى ! دع لى يا أخى حرية الكلام!! فهى تريد جوابا يروقها أو يترك لها باب الكلام مفتوحا بغير انتهاء

فلما سألته : هل تصدق معجزاتها ؟ قال : نعم ... أصدق أنها صنعت المعجزات ، وجاءت بخوارق العادات ، ولكنها معجزات انسانية لها أسباب انسانية ، وان تضاربت فيها أقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين

ثم قال : والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الايمان ... فشاهد العين مصدق ، وشاهد الايمان لا يلزمنا تصديقه الا اذا جاريناه فى أيمانه

قالت : هذا قميص الكتاف يا أخى ! هذا قميص الكتاف !

ومن الصعب أن تفهم مايرضيها اذا اتهمت أمامك أخلاق الناس جميعا وراحت تقدح فى دعاوى الصداقة والوفاء والفداء، فليس يرضيها أن تكون على رأيها لأنها تحب الرجل أريحيا ذا نخوة وحماسة وطموح الى عظائم الآمال والرغائب ، وتصديق بالوفاء والفداء

وليس يرضيها أن تناقضها وتضطرها الى التسليم ، لأن الاكراه مكروه على كل حال

ولكنها اذا كانت تجارى طبيعة المرأة فى حب الجدل والثرثرة والعناد فهى تجارى طبيعة المرأة أيضا فى اعجابها بطموح الرجل وصلابته واحلامه ، وربما استراحت الى الشعور بقوة عقله كما تستريح الى الشعور بكل بأس فيه ، فما كان يدرى همام هل يناقضها أو يجاريها فيما تقول ... وتلك حيرة يعالجها كل من عالج النساء

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله اليها « وسطاء الخير » ليسفر فى الصلح بينها وبينه

قالت : فهل تدرى ما صنع ؟ انه جاء يغازلنى وينفخ فى جمرة الغضب بينى وبين زوجى !

ثم قالت : ما أكذب الصداقة فى هذه الدنيا !

قال همام وقد أراد أن يعابثها ويسليها : ان صاحبنا لمعذور ، وان الاغراء بالخيانة لعظيم .. فليت جميع الاصدقاء لا يخونون الا باغراء كهذا الاغرء

ثم ضحك ، وضحكت ، وتماجنت فى الضحك وراحت تقول له : أراك ضننت على بقميص الكتاف اليوم ؟ لا . لا . اننى أريد اليوم قميص الكتاف ... قل . قل أليست كل صداقة فى هذه الدنيا لغرض ؟ هل يصادق الناس أحدا الا لمال او جمال أو سلطان أو نحو ذلك من الذرائع واللبانات ؟

قال همام : ومن لم يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية

من المزايا فهل هو انسان يستحق صداقة انسان ؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الارعن قد ظفر بالامنية الممنوعة ، وجعلت تقول : ها هو ذا قميص الكتاف . ها أنت اذا أخيرا يا بنى ! وأقبلت عليه تقبله وتناوشه ، وتبذل له ذخيرة من السرور ، كأنها فاكهة مترعة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور

وهى على ولعها بحديث الأكاذيب الشائعة فى أخلاق الناس وعودتها اليهآونة بعدآونة لم تنععلى الناسأكاذيبهمقط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم ، وانما تتحدث بها كما تتحدث بصفحة من الطعام الشهى لم يتقنها الطاهى .. ولا حرج أن تمضى فى حديث انتقادها بعد ازدرادها

فهى لهذا يصح أن تسمى «وثنية» فى تقويم مقاييس الأخلاق ولا يصح أن تسمى متشائمة أو ناقمة على الناس

أما مذهبها فى «الكرامة» فمذهب خليق أن يخيفمن يحب لها الكرامة ، ويود أن يأوى من كرامتها الى حصن منيع على الطراق

وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها انها « كسوة اجتماعية » لا يخلعها المرء فى المجالس ولا يلبسها ممزقة أو مرقعة أو موصومة . فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء فى هذا القياس !

اذا قيل أمامها ان فلانة اباحت نفسها لخادمها قالت ــ وهى تزعم المناقشة حبا للمناقشة ــ : ان المرأة قد تهفو هذه

الهفوة وهى لا تنظر الى مثل ذلك الرجل الاكما تنظر الى حذاء. وليس كل رجل يصل الى فراش المرأة يسودها . بل هو قد يكون خادمها فى ذلك الفراش

واذا قيل لها ان فلانا ضرب حبيبته قالت : وهل ضربها الا لأنه يحبها ؟ ان المرءليضرب نفسه فى الحائط اذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ ، لو كان ضرب النفس يشفى غلة المغيظ !

واذا قيل لها ان امرأة فى التاريخ او فى قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت ان المرأة لا تتهالك على اللذات الا أن تفقد الرجل الذى يفوق اللذة فى روعها . فتحب الرجل لأجل اللذة بدلا من أن تحب اللذة لأجل الرجل الذى تهواه وتستكين اليه

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة ، وانما تنفر من جميع الاشياء التى تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهى مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها أن يقارف أخبث المنكرات ، كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب

ويحار طبيب الأخلاق كما يحار طبيب الأبدان فى ايواء هذا المزاج الى مأواه من الصحة والداء . أفمن كانت كذلك فى نزغاتها وخلجاتها أتكون فى رأى الطب امرأة سليمة مستقيمة على سواء الطبيعة ؟ ان الاغراق يستلزم الزيغ والاختلال فى التركيب .. ولكن اى اختلال عسى أن يكون فى تركيب الجسم الذى يندمل جرحه بعد يوم ويقضى النهار والليل فى صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدرى ما الزكام ؟ كل اختلال يجاور هذه المناعة

هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار

أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة ان تستقيم وتتزن لو رزقت زوجا يوائم شوقها الى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت فى الزواج فشقيت ، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشقيقات ، فعاشت فى عالم قد أقفر من جنس حواء الا أن تكون منافسة مريبة أو عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيه الا رجال !



وجوه

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت !

يعيب الانسان أن يصنع له نفسا غير نفسه ووجها غير وجهه ، وأن يبدو للناس بوجهين يلعن أحدهما الآخر ، ويعلم هو انهما ــ كليهما ــ ملعونان

ولا يعيبه أن يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماته ومعنى من معانيه ، ويعرض لنا من ذهنه وسليقته وقلبه فى ساعة ما ليس يعرضه فى ساعة أخرى . لأن كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكذب ، وجوهر وليس بطلاء ، وصفحة من كتاب لا تتم قراءته الا باستعراض جميع الصفحات

ذو الوجهين فى كل وجه من وجهيه كذب وطلاء

وذو الوجوه المنوعة السمات ، المعددة الملامح ، المفرقة المعانى، راوية صادق الخبر يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه ، ولونا جديدا من تمامه ونقصه ، ونفسا جديدة فى تعبير جديد

والرجل الذى لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثال من تمثال هو جماد يختلس عنوان الحياة

والوجه الذى يصوره مائة مصور فيخرجون جميعا بطابع واحد لا يتبدل هو جدار فى هيئة انسان ، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والألوان

لنابليون بونابرت مئات من الصور الشمسية والزيتية ، ولا نذكر الا صورة واحدة منها تقول لنا حين نبصرها لأول وهلة : هذا وجه ايطالى لا مراء .. ! فلولا أننا نعلم أن نابليون ايطالى من شعبة ايطالية لقلنا ان الصورة كاذبة ، أو أن فراستنا هي التى كذبتنا ما رأيناه ، ولكننا نعلم أنه ايطالى من شعبة ايطالية فالصورة اذن أصدق من جميع الصور التى خفيت فيها ملامحه الايطالية ولم تبرز لنا هذا البروز

وجمال الدين الأفغانى يختلف المترجمون فيه هل هو من الفرس أو من الأفغان ؟ ولكن صورة من صوره التى ترتسم فيها عيناه القلقتان الوامضتان وصدغاه الناتئان وشفتاه العصبيتان تفض الجدال وتقول فيه أصدق مقال : أن هذا الوجه لأفغانى ولو ولد فى البلاد الفارسية ، وانه لأفغانى ولو نماه اليهم قوم من الفرس ، ونفاه عنهم قوم من الأفغان

وليس منا الا من يعرف صاحبا يحاول أن يخفى بعض مثالبه أو بعض سيئاته ثم يلتقطه المصور التقاطا فاذا هو حاسر الطبيعة بغير نقاب ، على كره منه وعلى كره من المصور . ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من امره ، لأنه يفهم افشاء الكلام ولا يفهم افشاء السمات والقسمات

وليس من اللازم اللازب أن يطول الزمن بين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد ، فانى لأذكر انى رأيت صورا ثلاثا لطفل واحد فى السنة الاولى من عمره اخذت فى ساعة واحدة فى مكان واحد تذكارا ليوم ميلاده : ترى احداها فلا تملك أن

تقول : ما أشبه هذا الطفل بأبيه ، وترى الثانية فلا تملك أن تقول ما أشبه هذا الطفل بأ مه ، وترى الثالثة فتستطيع ان تقول انه ليشبه أمه كما تستطيع أن تقول انه ليشبه أباه

ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها . فلا يندر أن يلتفت الانسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه امام المرآة فيلوح له شبه من عمومته أو شبه من خؤولته لم يكن قبل ذلك يلمحه فى صفحة وجهه ، وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرة أخرى الا فى مثل تلك اللفتة الخاطفة

وأعرف أبا مشهورا له خمسة من الأبناء الذكور يجلس كل منهم الى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما أقل خفاء ، ولا يحتاج الناظر الى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره انهما ابن وأبوه . ثم يجتمع الاخوة الخمسة فلايبدو بينهم هذا التشابه الا بفراسة المتأمل ، لتقارب الأصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات

ومما لا ريب فيه أن سمات الاخلاق والافهام شيء يستكن فى النفس قبل ان يبدو على أسارير الوجوه ، وأنها شيء لا يزول من النفس وان زال أثره الظاهر فى بعض الاحيان ، وأنه على قدر معانى النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الانس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط الى اللقاء

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللوائى لا يطالعنك بمنظر واحد فى محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين فى دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة

بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد حين ــ وقد تراها في يومها ــ فانت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراس كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة أخرى ــ وقد تكون على أثر الاولى ــ فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة والباب الشيوخ المحنكين

هى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الامهات حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين ، وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا الى جانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة

وهى تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن ، وما استقرت قط مع عشيق

لها صورة الى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانبا لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق الى محراب القربان

ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة فى أرض يونان القديمة تهم بالرقص فى كروم باخوس

وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة ومشفق تارة أخرى ، ويعزو تقلبها واطرادها الى الفتوة الحية التى لم تحبس فى محابس الافكار والعادات والتقاليد ، فهى أبدا فى أيدى العواطف والنوازع كعجينة الخلق

المهيأة للصوغ والتركيب فى كل ساعة

وخطر له أن ينشىء حولها رواية مسرحية هى جميع أبطالها وهى البطل الوحيد فيها ، تدور محاوراتها على المثال الآتى :

سارة : انى لا أرضى أن أصاحبك فى الطريق وانت فى هذه الثياب الفاضحة

سارة : وهل تحسبين أننى آسر بمصاحبتك وأنت بهذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزى الذى يشبه زى الحداد

سارة : على رسلكما أيتها الصديقتان ، لا تتخاصما ولا تشرعا فى تمزيق ما عليكما من ثياب . انها تستركما على كل حال ، وأنتما ضيفتاى غدا ... فهل تحضران الى وليمتى وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها ؟ لا عليكما من المصاحبة فى الطريق ... احضرا من طريقين مختلفين ولتكن كل منكما فى الثياب التى تروقها ، فأنتما تعلمان أننى أحبكما ، ولا أنكرمنك يا سارة شفوف الخلاعة ، ولا منك يا سارة مسوح الرهبانية !

سارة : وهل عندك وليمة غدا ؟ من دعوت اليها غيرنا من السيدات ؟

سارة : دعوت سارة و ..

سارة : سارة ! أخشى أن تكون تلك الفتاة التى لا تتحدث أبدا الا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ومواشطها

سارة : لا بل هى سارة التى لا تتحدث أبدا الا عن وليدها

سارة : هأنذا قد حضرت فى غيرالموعد الملائم على ما يظهر .

وآسف لأنى قطعت عليكن لذة الاغتياب . فالغيبة لذيذة .
ولا سيما غيبة الصديقات

سارة : لم نقل عنك شيئا . وانما أردنا تعريفك فقلنا انها هى سارة التى تحب وليدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه

سارة : واى عجب فىّ ذلك . الا تحب الأم وليدها ؟ وهل للمرأة فخر أشرف وأشهى من الأمومة ؟

سارة : أخطأت يا صديقتى . ان فخر المرأة جمالها

سارة : بل فخر المرأة ذكاؤها

سارة : بل فخر المرأة من تحبه ويحبها .. ويحى ويحى! ..

لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فما زلنا حتى جعلناها بين أربع

سارة : وان شئتن فلتكن بين خمس .. علام تختلفن ؟ الا تسمحن لى بنصيب فى هذا الخلاف ؟

سارة : أهلا بك سارة ... ! أخشى ان لا تكون لك فرصة باقية لخلاف

لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة أن فخر المرأة أمومتها وقائلة ان فخر المرأة جمالها وقائلة بل فخرها ذكاؤها ، وقائلة لا هذا ولا ذاك ولا ذلك . بل فخرها حبها وغرامها .. فماذا انت قائلة بعد ما قيل . لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة

سارة . كلا يا صاحبتى ! لا تتعجلى بالرثاء الحالى . فقد نسيتن فخرا للمرأة لا ينقطع عن الأمومة ولا الذكاء ولا الجمال ولا الغرام . ولا أدرى كيف نسيتنه هذا النسيان ؟ فخر المرأة عذابها يا اخوات

سارة : صدقت يا صديقة !

سارة : ماذا تقولين ؟ صدقت ؟ ياللعار . هذا كلام العجائز ، هذا حديث خرافة . هذا مذهب عتيق أقدم من حواء والحية . انما خلقنا للسرور نأخذه ونعطيه . فمن نذر المرأة للعذاب لا أصاب فى الدنيا غير العذاب !

سارة : ليسقط التمرد !

سارة : ليحى التمرد

▱

ثم يتقاربن ويتلاحمن ، ويتسربن كلهن فى شخص واحد ، يبقى على المسرح فى ثياب الشرطة ! ويصيح : أين المشاجرة وأين المتشاجرات . .

▱

وقد تلا همام على سارة هذا الفصيل الصغير فاستملحت الفكرة وصفقت لها طويلا

قال همام : كفاية . لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية

▱

ولم تكن هى فى بادىء الأمر تفطن لهذا الذى يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها : انما كانت تعرف كيف تبدى بضاضتها فى الثياب البيضاء ، وكيف تخيل لك النحافة فى الثياب الدكناء أو السوداء ، وكيف تصفف طرتها بما يظهر من وجهها سمات الطفولة ، وكيف تصففها بما يكشف

منها جانب الذكاء ويزين القسمات باشراف جبينها الوضاء ، وتلك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت الى محاسـنها وتسمع رأى الرجال والنساء فيما يعجبهم من مرآها . لكنها لم تكن تلتفت الى ما وراء ذلك من تقلب المعانى وتعدد الشخوص

فانهما لفى يوم رائق صاف جميل الاصيل وهمام يتأمل وجهها الذى تبدل الاشعة والظلال من معانيه كل لحظة ، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة ، اذا به يهتف فجأة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها .

كم لك من وجوه يا سارة

فانتفضت فى ذراعه ، وحسبت أنها مقدمة لاتهام وملاحاة ، وهما يستمرئان نعيم ذلك اليوم الرائق الصافى الجميل ، وقالت :

ماذا تعنى ؟

قال : هدئى من روعك . انما ثناء أردت لا ملامة ، وأخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة أو عن شخص من شخوص الروايات ، وهى تصغى اليه مسبوتة، ثم مستريحة، ثم مبتسمة ، ثم طروبا متهللة ، وهو يرى فيما يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه ، حتى كان ختام الحـــديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية .. ثم نكتة من نكاتها التى لا تخذلها فى أمثال هذه المواقف ، ألقتها اليه وهى تتناءى عنه مرحة ضاحكة :

احمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيرا على الوفاء !

كيف عرفها؟

ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال عن بدايتها .

وسبيل التواريخ أن تنطوى السير وتنصرم الدول ثم نتقصى مناشئها وأسباب ظهورها

فنحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام ، بعد أن عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقاء الاخير

لم يقصد همام أن يلتقى بسارة ولم تقصد سارة أن تلتقى بهمام ... وانما جاء اللقاء كما تجىء معظم الحوادث الكبرى فى معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفة لا يسبقها عمد ، وعرضا لا يمهد له بتفكير .

خرج همام يتمشى فى الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التى تبتهج فيها الشمس فى هدوء ، ويرقص فيها الهواء فى حنين ، ويرق فيها الجو فى تشوف وارتقاب ، وتطرح فيها النفس أعباءها كما تطرح القافلة أحمالها عند مشارفة الواحة المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل : ريثما تنهض بالعبء من جديد

ماذا عسى إن يكون العبء المنظور ؟ .

لا تقول الشمس ، ولايجيب الهواء ، ولا يشف عنه الجو .

ولا تحفل النفس ما يكون ، حتى يكون ... ان كان !

ويعود همام من رحلته وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته ، وأصبح جزءا من الشمس والهواء والجو ، ولم يعد جزءا من عالم الانسان .

والفى نفسه وهو عائد الى منزله على مقربة من مسكن صاحبه الاستاذ زاهر ، وهو رجل ظريف طيب النحيزة من أولئك الذين يرضون فيسلون ويطربون ، ويسخطون فيكونون أدنى الى التسلية والطرب ، لطرافة مايرتجله فى هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد

وكان يومئذ يسكن فى بيت من بيوت الحجرات المفروشة تديره خائطة فرنسية ليكن اسمها « ماريانا » ... فدلف همام الى المنزل يزور صاحبه ويقضى معه فترة يقفزان فيها بين معارض الحديث التىلا وصلة بينهما، ويضحكان ضحكا كثيرا، ان لم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين

ووجد « ماريانا » فى فناء الدار تطعم الديكة الرومية التى عندها صفحة من « المكرونة » البائتة ، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها ، لانها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة ، كما تسمى سيدة ، وهى مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه

قال همام : أسعد الله الصباح . أين زاهر يا مدام ؟

فردت تحيته بمثلها ، وقالت : أولا نراك الا زائرا لزاهر ؟ انه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل

والتفت همام الى صفحة المكرونة قائلا : أرى أن الديكة اليوم ايطالية وليست رومية !

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة ، وانما أجابت الفتاة قائلة : ان كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الاجناس : مصرية ان أكلت الفول المدمس ، وانجليزية ان اكلت البطاطس ، وهندية ان صبرت على الصيام الطويل

فنظرت اليها « ماريانا » نظرة العتب المصطنع ، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها فى الحديث فى وقت واحد ، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التى أحس لتوها انها وافقت هواه وانه كان يسوق الحديث اليها أن أبطأ المساق

قال همام : ان الآنسة تعـــرف كل شىء عن ديكة البيت وتذبذبها فى الوطنية ، ولكنى لاأذكر أننى رأيتك هنا يا آنسة قبل الآن

ماذا يقول ؟ أيقول لا أذكر أننى رأيتك ؟ أكان من الجائز اذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رآها ؟

أحس همام أيضا أن الكلمة لم توافق هواها ، وسمعها تجيب بشىء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

ولماذا تدعونى يا آنسة ! أتستصغرنى ؟ اننى ربة بيت ، وأم!

▱

يا للمرأة ! أتريد أن يفهم أنها غضبت لأنه دعاها يا آنسة ؟ لا والله ! لقد كان بريق الرضا بهذه التسمية يومض فى عينيها ... انما عز عليها أنه جعلها شيئا مهملا يجوز أن يراه مرة أو

مرات ثم ينساه ، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب ، وتوارت وراء حجاب المجاملات والالقاب

فأحب أن يغيظها قليلا وعاد يقول : ولكن السيدات يا آنسة . . يلبسن فى أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج . فأين هذه العلامة ؟

قالت : لذلك شرح يطول

قال : عسى أن أسمعه فى وقت قريب

ثم اقتضب الحديث والتفت الى شيخ متهدم يعبر الفناء ، فسأل الخائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟

فزمت شفتيها لا يدرى أهى مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله ، وقالت : ضيف ولكن لا أظنه طويل المقام . ألا تراه يتعثر بقدميه ؟ وفى أقل من دقائق لا تتجاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعرفه « ماريانا » عن الرجل وعاداته وأطواره ، وثروته التى تربى على الألوف ، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة

قال همام : وما حاجته الى البحث عن وارث ؟ ان الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون « عند اللزوم »

قالت : ألا يحتاج الى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه ؟

قال همام : ان كنت يا ماريانا حريصة على خروجه من حجراتك فانصحى له بكتابة اعلان فى الصحف السيارة، يقول فيه أنه يملك كذا من الالوف ويحتاج الى كذا من الاخوان

وأولاد الاعمام وأولاد الاخوال ، وانظـرى كيف يضيق بيتك عن الطالبين والطالبات ممن « آنسوا فى نفوسـهم الوفاء بالشروط »

فنسيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعت ضاحكة، ومازالت حتى اجبرت هماما ـ وهو فى غنى عن الاجبار ـ أن يحول الحديث اليها . فسألها قائلا :

وانت ياسيدة . نعم أنت ياسيدة فى هذه المرة : لأية قرابة ترشحين نفسك اذا أعلن الرجل اعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر . ثم قالت : أوفرها نصيبا فى الميراث ؟

قال : لا تكونين اذن الا زوجة ؟

قالت ما معناه : فأل الله ولا فألك . أى غرام غرامك هذا بذكر الزواج والزوجات والازواج ؟ .. ثم رفعت راسها متأففة كأنها تطوى حديثا لا تحب أن يجرى لها على لسان ، وهى فى الواقع تود لو أفـرغت كل مافى جعبتها من ذلك الحديث ، أول ما تسعف المناسبة وتبدر من همام بادرة اغراء

قال همام : لا تؤاخذينى أن ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فاننى لم أتزوج قط ولا خبرة لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا ..

قالت : أصحيح ؟ .. لقد أراحك الله . فبـأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ؟

فأسرع همام قائلا : لذلك شرح يطول !

قالت : يالك من منتقم .. على انك تستطيع أن تطمئن كل

الاطمئنان ، فاننى لا أكلفك عناء هذا الشرح ولا استطلع دخائل شأنك .. لست فضولية بحمد الله

قال : واذا كنت أنا فضوليا ؟

قالت : اذن يختلف الامر

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لى انك كما وصفت نفسك : أنت فضولى ولا فخر

قال : ليس مع كل الناس

قالت : تحيات وغزل .. ! وعما قريب : عيناك ووجنتاك واهواك ولا أنساك ، الى آخر هذا الموال المحفوظ

قال : ولماذا عما قريب !.. الآن !

قالت : أنت عجول ، وأنت جرىء أيضا

قال : ان وعدتني أن أجنى للصبر ثمرة . فأنا أصبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وانا لا أتعجلك شيئا ، وأنصرف الآن !

قالت : وصاحبك الذى تسأل عنه ؟

قال : ها ... يلوح لى أننى اعجبتك ! وانك تسبقيننى !

قالت : لولا أنك تمزح لقلت أنك مغرور غروركم كلكم معشر الرجال . لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيدا جدا فى نصف

ساعة ولا أدرى ما خطب « ماريانا » سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ العلك على اتفاق معها أن تهيىء هذا اللقاء ؟ .. ما فى ذلك من عجب ، فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال

وسمعت « ماريانا » اسمها فعادت تهرول وتتساءل : ماذا تقولين عنى يا سارة ؟

قال همام : انها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج !

قالت ماريانا : أنا أعلم على الاقل أن الدجاج لا تحتاج الى من يدبر لها الخلوة مع الديكة !

قالت الفتاة : قاتلك الله يا عجوز السوء . لماذا تنصلين عن التهمة ؟ أما كان الاولى أن تتمهلى لمحة لعلى كنت أنوى أن أشكرك على ماصنعت ؟

فطاش الفرح بهمام ، وأوشك قلبه أن يفلت من نياطه ، وانتشى نشوة خمسين كأسا فى رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على « ماريانا » : بلى دعى لى أنا أن أشكرها . اننى أقبل وجنتيها ، اننى ألثم فاها .. وصنع ما يقوله قبل أن تفيق « ماريانا » من دهشتها وقهقهتها . ومال الى الفتاة قبل أن تدرى ما هو صانع قائلا وأقبلك أنت أيضا اكراما ... لماريانا . وقبلها !

ثم جلس مأخوذا بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الاولى التى تلفظها الفتاة : أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل فى حينهادون مايتبعه من ثورة أو مسامحة ، فاســتطال الامد وما انقضت غير ثوان فى توقع ما يكون . وزاده فرحا على فرح أن شيئا مما توقعه لم يحدث ، وأن كل ما حدث ان الفتــاة بهتت وراحت تقول شيئا لابد أن يقال ، فقالت فى صوت خافت :

لقد آذانى شاربك الطويل !

▱

وتم التعارف بالاسماء

واسترسل الحديث اصداء لا يقصــدها القائل ولا يصــغى اليها السامع ، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غما ثقيلابغير منفذ وبغير دلالة . فان الفتاة لبثت تتكلم ويبدو منعينيها أنهاتفكر فى غير ما تتكلم . ثم خرجت ساهمة بغير استئذان الا حــين قاربت الباب ، فقد انثنت تحيى هماما تحية من يؤدى «واجب اللياقة » لا تحية من يجامل فى وداع

قال همام : ما معنى هذا ؟

قالت « ماريانا » : لا عليك منها . انهــا ســتعود يوما لا محالة

قال : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هى غاضبة ؟

قالت : مم تغضب ؟ أمن القبلة ؟ فلم لم أغضب أنا !؟

قال : خيبة الله عليــك يا عزيزتى ماريانا ... دعينــا من غضبك أنت ورضاك ، فانها هى القبــلة الاولى والاخــيرة بغير مراء ! ولئن رضيت عنها فما انا براض .. ولكن الذى يعنينى

أن لا تكون قبلتها هى القبلة الاولى والاخيرة • فما رأيك ؟

قالت : ابغ لك مستشارا غيرى • اننى أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها • ولا معرفة لى بالتوفيق بين رجل وامرأة !

فلم يشأ همام أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر صاحبه الذى لم يعد ولم يكن يبالى فى تلك الساعة أن يعود . وخرج منقبضا متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة ولا يلوم نفسه على تقبيلها • كأنما كان يستطيع الفصل بين الامرين !•• وعادت القبلة الى شفتيه كأنها طيف يرف على مهادة الاول • حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ليلامس ذلك الثغر الذى لاح له أنه ينضغط وينضغط من لينه وطراوته الى غير نهاية ، وسرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذى هدأت سورته وبقيت ذكراه ، فازداد غما على غم • ولعن ذلك الشيطان الكامن فى أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها ، فى حيثما احتاجت الى التهوين والنسيان

وذهب الى المكتب فتلقاه الخادم قائلا : ان سيدة سألت عنك بالتليفون.

فلم يعره كبير التفات

وعاد الخادم بعد فترة يقول : ان سيدة على التليفون تسأل عنك ، وأظنها السيدة الاولى

فنهض همام الى التليفون وآخر ما فى ذهنه أن المتكلمة هى فتاة ذلك الصباح ، وقال بغير اكتراث : من المتكلم ؟

قال صوت كصـوت الفتـاة بعد التحريف المعهـود فى أداة التليفون : الا تعرفنى ؟

قال : عرفتك الآن • أنت سارة ولا ريب !

ولم يلاحظ هو ولا لاحظت هى أنه حـذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الاصدقاء الاقدمون !

قالت : أوكنت تنتظر هذه المحادثة ؟

قال : لا أزعم أننى كنت أنتظرها ، ولـكنى أحسب أننى كنت أتمناها !

قالت : اذن هل تحب أنأراك الليلة فى دار الصورالمتحركة

قال : بل أحب أن نلتقى على انفراد • فذلك أروح وأسلم

قالت : انما عنيت أن تشهد الرواية لأنها تشبه قصـتى تمام المشابهة • ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك

قال : لأن أسمعها من لسانك خير من أنأشهدها مع مئات

قالت : فأين اذن ؟

قال : ما رأيك فى حديقة الاهرام ؟ انها مكان قلمـا يغشاه أحد فى هذه الآونة ، وسنلتقى فى زاوية من الطريق ونستقل سيارة من هناك الى الحديقة ، وأسـمع منك أو أقول لك كل ما تحبين

▱

كان أول ما فاهت به وهى تجلس الى جانبه فىالسيارة أن قالت :

لابد أنك حسبتنى مجنونة وقلت فى خلدك : ما هـــذه الرعناء التى تقبـل التقبيل ، ثم تخرج مغضبــة ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثم تحضر الى الموعد طائعة ، فماذا حسبتنى بربك ؟ قل لى ولا تكذب !

قال : على كل حال لست بآسف لجنونك !

قالت وأنت يا حضرة العاقل اللبيب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجى بهذه المفاجأة قبل أن ترمينى بالجنون ؟

قال : مستفهما : أللأمر علاقة بماريانا ؟

قالت : هو ذاك . فلو اننى أطلت المكث لباخ الغضب بعـد ذلك . ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت فى براثنها بلا رحمة ، فاما أن أطيعها فى كل ما يعن لها ، وآما التهديد والانذار

فربت على خدها كأنها طفلة أجادت درسها . وقال : انك لحصيفة يا هذه التى تتطلع منى الى تهمــة الجنــون . ولكنها حصافة مخيفة

ثم حكى لها ما قالته ماريانا بعد انصرافها ، وكيف انها لم تغضب حين قبلها ! فكيف تغضب الفتيــات الماجنــات ؟... فأخذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع . وثابت الى الحصافة فأوصته أن يزور « ماريانا » فى آليوم التالى ويثابر على سؤالها بضعة أيام . ثم ينسى المسألة كأنه ألقى بها فى ذمة المصادفات

وانطوت المسافة الى حديقة الاهرام بمثل لمح البصر ، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سـيارته أسرع ما أنجبته

المصانع الحديثة ، وأنه حرام عليه أن لا يشترك بها فى سباق السيارات

وخف كل شيء فى الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عن واجبه المرسوم ، وشعرا بهذه الخفة من حولهما ولا سيما حين بصرا بالمكان خاليا من كل انسان · فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الاطفال ، وانبعثا معا فى خلق جديد

وطلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة فى طعام وشراب·فصدفت عن كل ما اقترحه عليها الا صحفة شواء لا تشبع : فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها ، وقال لها ان بعض الاجسام اذا خف لم تكن خفته على استواء واحد. فيخف هنا ويسمن هناك ويشوه من حيث يراد له حسن الهندام ، ولا ينال أصحابه الا الجوع والندم !

فنظرت اليه بعينى طفلة تخاف ، وسألته مستوثقة : أحق ما تقول ؟

قال : حق كل الحق . وسأريك اذا زرتنى فى المنزل صور التماثيل التى يعدونها فى العالم بأسره نماذج لجمال الانوثة ، فان تماثيل الزهرة التى صنعتها اليونان ــ وهمأساتذة الذوق السليم ــ ليست على نحافة ولا دقة فى الخصور والاطراف ، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق · وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال فى بنات حواء .. فأين نرى البضاضة والسموق اذ أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات؟

وكيف تتعدد القوالب اذا كانت المرأة لا تخلق لنا الا فى قالب واحد ؟

وسرها ما سمعت فسألته عفوا :

أيعجبك اذن هندام جسمى على ما هو عليه ؟

قال متماجنا : ومن أين لى أن أحكم ؟

ثم أحجم عن التمادى فى هذه النغمة ، وأيقن أنهما فى هذه الخفة التى يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة ، وأحب أن يتحول الحديث الى قصة الزواج التى وعدته أن تقصها عليه ، والتى يتوقف على فهمه اياها أن يفهم مدى العلاقة التى ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة فى تلك الساعة أمامه • فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باستطراده :

ان كنت لا ترضين زوجا بالتماس النحافة فعلام كل هذا العناء ؟ أهناك رجل آخر ؟

وصح ما قدره همام ، فكان جوابها على نغمة الخفة التى شملت فى تلك الساعة كل شىء ، وقالت : أو تحسب أن المرأة لا تتزين الا لزوج أو حبيب ؟ انها لتتزين لنفسها • وانها لتتزين للرجل الذى فى عالم الخيال ، ولو لم يكن له فى عالم الواقع وجود

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهى تسأله : أأرضى زوجا ؟ ألا ليت هذا كل ما يعنينى !••• اذن لأكلت قنطاراً من الارز والزبدة كل يوم !

واجتازت النقلة بين أرضاء الزوج وقصة الزواج فى جملة أو جملتين . ثم انقضى نصف ساعة علم فيها همام صفوة ما أرادت أن يعلم . فلو سأله سائل : أصدقها فى جميع قولها ؟ أعذرها فى جميع فعلها ؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالايجاب

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الامومة . ونمت وهى لا تعرف الا جماح الحيوية العارمة التى لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف ، مع ذلك الذكاء الوقاد الذى لاتخفى عليه خافية الموانع والمحظورات ، وانها لو سيقت الى زوج « يملأ عينها » ويحقق معنى الرجولة فى رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القنوع . ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا ، والتمست لقلبها وحده جميع الاعذار

قالت وقد سردت له قصتها :

أصغرت الآن فى نظرك ؟

قال : أمنى تطلبين الحكم ؟ أنا حاكم مغرض فلا تنفعك الشهادة منى ، غير أنى أقول ان الذين ينصفونك فى الدنيا قليلون

قالت : لا حاجة بى الى انصاف الدنيا . فلتحفظه لمن يطلبونه

ولقد رجعا من الحديقة الى الجيزة مشيا على الاقدام ،لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق . وجاء الترام فركبت فى مقصورة النساء وركب مع الرجال

وكان الموعد الثانى فى بيت همام

أيام

أجل هي فتاتى لا مراء فيها

ولئن خشيت حبا فانما هذه الفتاة التى يحق لى أن أخشى حبها وأخشاها

سنحت هذه الخاطرة فى حدس همام مع سنوح سارة فى أول الطريق طفرة واحدة

وكان همام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها فى مسألة المواعيد • فأبغض النساء اليه المرأة التى تحسب سرورالرجل بلقياها سببا كافيا لتنكيده بالانتظار وتكديره بالابطاء فى الحضور الى الموعد ، ولو كان فى وسعها أن تسبقه اليه ... وعندها أنه ما دام راغبا فى لقائها فلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويسعد بهذه المتعة صافية ، وعليه أن يبذل ثمنها نكدا لا ضرورة له وغصة لا حاجة اليها ، وهو صاغر راغم يحرق الارم ولا يعرف له حيلة غير الانابة والتسليم . والا فماذا هو صانع ؟

وجواب « ماذا هو صانع ؟ » هذه يختلف باختلاف الرجال واختلاف أنواع الهوى . أما جوابها عند همام فهو الانتظار خمس عشرة دقيقة على الاكثر ريثما ينقضى أقصى المدى المفروض لاختلاف الساعات فى التقديم والتقدير . ثم ينصرف ولا يسأل عن العاقبة ، الا اذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول

فلما رأى سارة ـ وهو يراقب الطريق من وراء النافذة ـ قد أقبلت فى أول الطريق قبل الموعـــد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنها تتحرى الدقـــة فى رعاية المواعيد ، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقةبينه وبينها . وأوجس فىحينها أن تنشب هذه العلاقة جذورها فى فؤاده فيتبعها ما لابد أن يتبعها من لواعج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيرا جدا • لأن الفتاة التى تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع ، وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع ، لهى صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمـــة الشـــعور وقيمـــة السرور ، ولا يقتصر ذكاؤها على النظر الى عقربى الساعة لادراك الميعاد !

وفى الحق أن سارة قد بهرت هماما بأشياء كثيرة فى أول زياراتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد

فلو كانت تعرف ما يروقه ويســتهويه من النســاء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحانا عسيرا وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التى ليس بعدها تزكية ، والشهادة التى ليس فوقها شهادة

هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا « موقعا » تشبيها له بالغناء الذىينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف • ويسكن حينما يطيب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش

وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الايقاع وطرافة السماع

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها اغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضا مفتوحا فى كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل « نيتشه » الذى يقول ان الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما فى تمييز النكات

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لانها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها كما يحتقر الرجل الذى يأنف من تلويث يديه فى حقله أو حديقة داره

وهو يحب المرأة التى تستطيع ان تكون «انسانا» فى بعض الاوقات بمعزل عن الانوثة والذكورة ، فلا تكون الانوثة الحيوانية هى كل وظيفتها فى الحياة

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة فى أقل من ساعة ، يوم جاءته فى أول زيارة

جاءته فى زينة تلفت العين الى كل مزية فى جسدها ، ولا

تلفت النظر الى عيب فى نفسها

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت الى أثاث الحجرة تضعه فى مواضعه التى تهواها ، والى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذى تود أن تراه ، والى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لاول وهلة كيف طهيت كل صفحة ، وكيف أعدت كل طبخة ، وكيف لوحظت النظافة فى التحضير والغسل والتجفيف

وحان وقت المائدة فقدم لها «الديك» قائلا : هذا اعتراف بفضل الديك فى تعارفنا ، وتمهيد محادثتنا الاولى

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهاتفة : لا أحب ياصاحبى أن تعرف لى فضلا على هذه الطريقة !

فطرب للنكتة ووجم فى وقت واحد ، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس ، ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه الا أن ينقذ نفسه وهو يردد فى شىء من التلعثم : ان كنت لا تأبين أن أمزجك بدمى ولحمى وأن أجعلك جزءا منى فالطريقة لا تهم ، وأنت أكلة شهية تطيب لى بغير حاجة الى السكاكين والقدور !

وكان حديثها على المائدة ــ وقد استغرقت ساعتين ــ على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ماتكون أحاديث الموائد

لاحظت انه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين . فقالت : كان من حقنا أن نتزوج ، فنحن زوجان طبيعيان : أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره ، فلا يشجر بيننا نزاع

قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول : هـذا مذهب شوبنهور منقولا الى المطبخ !

واحس أنه اقحم اسم شوبنهور فى غير مقحم : أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء ؟

وانه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع الى موضوع غير هـذا الموضوع الذى أثاره ، وانه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور اذا هى تلاحقه قائلة :

نعم ، القصـير يطلب الطويلة والابيض يطلب السمراء ، والبدين يطلب النحيفة ، ومن يأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح ... هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها الى « محل الشاهد » كما يقولون أضعاف ماراعته نكاتها ، ولمحت هى دهشته فاستطردت تقول : على رسلك ! لا تخف ولا تجفل ! فلست بحمد الله فيلسوفة ، وما قرأت شوبنهور الا لان « أحدا » أرادنى على قراءته ، ولأن تفهيمه اياى كان ذريعة اللقـاء بيننا ، وما كان بالجائز أن يحضر الى ليفهمنى رواية أو مقالة ممتعة ... فلم يعد لنا بد من الفلسفة وأمرنا الى الله !! فأغرب همـام فى الضحك ، لانه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيـه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به ، وسخرت فلسفته لغرامها

واثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها ، واطمأن الى سياق الفلاسفة والشـعراء فقال : الآن آمنت مرة أخـرى أن

صديقى « هينى » خبير بالنساء فى جده ومزاحه ..

قالت : ومن صديقك هذا هينى ؟

قال : لا تتهيبى . فليس هو بفيلسوف مغلق ، ولا هو بالكاتب الذى يحوجك الى ترجمان أو مفسر ، أن حلا لك أن تقرئيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ ، وما أحسب له نظيرا فى الدعابة وخفة الروح

قالت : أصحيح ؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف ؟

قال : انه ضجر من سيدة دعية لها عين واحدة تتطفل على الادب فكتب عنها يقول : كل امرأة تكتب فانما تتجه باحدى عينيها الى القرطاس وبالعين الثانية الى رجل ... ما عدا فلانة طبعا ... فان لها عينا واحدة كما يعلم القراء !

فراقتها غمزة الشاعر للمرأةالدعية ، وقالت : أما من جهتى أنا فانى لأقر وأقسم بين يديك وبين يدى الله أن هينى لظريف وأنه لصادق ، فما تقرأ المرأة الا عن رجل أو بسبب رجل ، وكل ماعدا ذلك كذب وادعاء

وتشعب الحديث ، وتفتحت مغاليق الاسرار من الجانبين ، وفى غير مناسبة ظاهرة سألته وفى عينيها خبث كخبث الاطفال المناوئين :

كم عمرك يا همام ؟

قال همام : دعى هذه المحرجات يا بنية . فان أبيت الا الالحاح فسأخبرك على شريطة واحدة ، وهى أن تخبرينى أنت ـ بداءة ـ لماذا تسألين ؟

قالت : ولم ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال ؟ على اننى لا أنوى أن أدعك تطيل التخمين ، واريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة اذا كنا متفقين في نسبة السن كما اتفقنا فى غيرها من المقارنات ... فاننى أنا فى الثالثة والعشرين ، وينبغى أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافا اليه سبع سنوات

قال : بل تسمحين أن يكون عمرك خمسا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين ، واقسم لك اننى ما اسقطت يوما واحدا ، وانك أسقطت السنتين الناقصتين !!

▱

من الواجب أن نعرف لأيام النعيم وداعا غير وداع الاسى والأنين الذى اصطلح عليه شعراء الاصطلاح فى بعض العصور العربية

فمن الخيانة للسرور عند هؤلاء الناس أن تلوح له ساعة وداعه بمنديل غير مبلول ، وأن تفرغ منه شبعان راضيا عن الشبع شاكرا للزاد ، خاليا بذكرياته للتملى به والتأمل فيه

وشعراء الاصطلاح جهلاء بالانسان لا يدرون ما الاسى ولا يدرون ما السرور . فالواقع ان الانسان ليرحب بالشبع من النعيم وهو شاكر كما يرحب بالشبع من المائدة وهو شاكر ، وترتفع المائدة فلا يحزنه أن ترتفع بعدما استوفى صنوفها وروى احشاءه من طعامها وشرابها وهنأ حواسه جميعا بما استطاع ان يلتهم من دسمها وحلواها ، ومن شبع من الروضة

زهرا ولونا وأريجا وظلا فلابد أن يشـوقه أن يغمض عينيـه ليشبع منها خيالا ومراجعة ويضع لها صورة مجملة يتأملهـا ويستبقيها ، ويفسح لها مكانا من متحف النفس تأوى اليـه أبد الآبدين بنجوة عن الواقع وطوارق الاحداث : انتهى السرور الظاهر فليبدأ السرور الباطن ، وذهب السرور العابر فليبق السرور الدائم ، وتم السرور الذى يملكنا ويؤثر فينا فلننظر فى السرور الذى نملكه ونؤثر فيه

وهكذا ودع همام يومه شبعان جد الشبع ، قانعـا اوفى ما تكون القناعة فى تركيب أبنـاء الفناء ، مستريحا الى الوداع كما يستريح الشاكر المكتفى لا كما يستريح السائم الملول ، واغمض عينيه على فراشه تلك الليـلة يستعيد ويستجمع ويستمرىء ويتحدى النوم وهو مقبل اليه :

أيها النوم أتحدى احلامك ان تعطينى فوق ما أخذت اليوم فى صحو اليقظة ... وأنا كاسب الرهان على الحالين ...

▱

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الاولى على تباعد بينهما فى مبدأ الامر ، ثم على تقارب يوشك ان يكون بلا انقطاع

الا انهما اتفقا على أن ينذرا سحابة يوم الجمعة لخلوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق

فيوما على رمال الهرم ، لانها تريد أن توقظ الفراعنة !

ويوما على القناطر الخيرية ، لانها تريد أن تحاسب النيـل العتيق على عرائسه الغريقات

ويوما على زورق بين روض الفرج والروضة ، ويوما فى حلوان ويوما عند آثار صقارة ، ويوما فى صحراء الماظة ، ويوما فى جوار عين شمس والمطرية . فان لم تكن رياضة خلاء فمكوف فى المنزل من الصباح الى المساء ، وذلك أمتع الايام

يخلو المنزل نهارها فلا طاهى فيه ولا خادم ولا نزيل غير سارة وهمام ، وقد جعلا خدمة المنزل فى ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التى يتولاها الكهان ، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها : هى فى يدها المكنسة وهو فى يده سكينة التخريط ... أو هى تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار ... أو هى تملأ الاطباق وهو ينقلها الى المائدة . حتى اذا حان وقت الطعام مثلت الى جانب المائدة فى وقار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة . فتفضلوا أيها السادة

وتتسرب الى المنزل أنباء الاصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الايام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الاغانى ، أو يلعبان « الدومينة » قليلا وهى لعبة تحذقها سارة ويعتقد همام انها أصح الالعاب وأشدها مطابقة للحياة

فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة

أما « الدومينة » ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب اليقين وفيها حساب للظنون ، وفيها

حساب للغيب الذى تجهله أنت وخصمك وللغيب الذى تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذى يعرفه كل من يشاء ، ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يديك

قالت سارة يوما بعد ما استعادته شرح « فلسفة الدومينة» للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : أو لا تستمتع بشىء الا أن تكون له فلسفة ؟

قال : لا . بل أنا أستمتع بالشىء ثم ابحث عن فلسفته ، واننى لابحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كى لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه . فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه واستقصى معناه !

وامثال هذه الاسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبى أباه الشيخ فى دالة ومحبة ، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، فما كان فى تلك الاسئلة فضول غريب ولا تهجم واغل ، ولكن السائل والمسؤول عنه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه ، ويتفقد فيه من يشاء ما يشاء ، ولا فضول ولا اقتحام

لماذا هام بها؟

حواء أخرجت من جنة ، وبنـــــاتها كل يوم يخرجن من جنات ... فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندرى . ولكنها هى المرأة أبدا لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها ، أو يسعد بغير سعادتها . وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع ســعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه والمها ، ولم يرضها ان تشاركه السعادة الوافية ، ان كان للسعادة سبب سواها

كان همام قانعا بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سارة : ان حضرت سره حضورها ، وان غابت لم يغضبه غيــابها ، لا يفرض عليها حقا ولا يحسب انها تفـــــرض حقا عليه ، ويتصلان وينفصلان ولاقلق فى الامر ولااستطلاع ولااستكراه : لها وقتها كله وله وقته كله ، الا ما يشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السواء ، بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء

غير أن « سارة » لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المنساب وأبت الا أن تراه شلالا يعج ويثور ، ويضطرب ويمور ، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور

كان يسألها فى مبدأ العلاقة بينهما عن الموعد المقبل فتـذكر له يوما ويذكر هو أن ذلك اليوم يوم زيارة صـــديق أو يوم شهود احتفال أو يوم عمل من الاعمال التى تشغله عن اللقاء ، ويرجوها أن تنظر فى تأجيل الموعد ، فلا يعجبها ذلك

وكانت تستعجل الانصراف فى بعض زياراتها وتعتذر اليه بموعد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير ، فيأذن لهـــا ولا يمسكها ، فلا يعجبها ذلك !

وقالت له يوما بعبارة صريحة انه لو « أمرها » بالبقـــاء لبقيت وهي مسرورة

وقالت له أياما أنه لو فضل موعدها على كل موعـد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب اليه مفضل لديه ، فلما قال لها انه يفضل لقاءها على غيره اذا كان حرا فى الارتباط بهذا أو بذاك قالت هذه حجج يحتج بها الرجال حين لايريدون وينبذونها حين يريدون ، وانه لو ترك من اجلها ميعادا لتركت من أجله مواعيد

واستباحت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش فى أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها . فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام فى غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها . فصاحت به عابسة : ما هذه ؟

وكان همام قد نسى الصورة ونسى أنها هناك . فنظر اليها وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة

غير انه لاحظ أن سارة لم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها ، فلو كانت أجمل مما هى مائة مرة وكانت تشبه سارة فى بضاضتها لما راعها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التى بدرت منها فى صيحتها العابسة . لكن الفتاة هيفـاء ، جميلة الهيف ، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال

وقلة اعتدال ، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضح بالخفة والنغم

وقدكانت نوبة النحافة والتنحيف يومئذ فى بدايتها وفى ابانها ، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوى على طراز الجمال الحديث ، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها

قالت : وفيم تحتفظ بها ؟

قال : صورة فنية جميلة ، كأنها تمثال ، كأنها تحفة

قالت وهى تنظر الى توقيع الفتاة وخطها الركيك . ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهى الراقصة الوحيدة التى راقك جمالها ؟

قال : ان كان لا يقنعك الا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس فى الامر صعوبة . . . ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لأنفت أن تغارى من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين « أميتها » ماثلة فى خطها

قالت : أو تظن أننى أبتهج بأن تحبنى لحدة ذكائى وتحب هذه الراقصة لما . . . لما لست أدرى ما أنت واجد فيها ؟

قال : أنا لا أحبها . .

قالت : أصحيح ؟ اذن هل أنا فى حل من تمزيق الصورة ؟

قال : لا أمنعك ولكنها خسارة

قالت : أهى خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها ! اننى لا أنافس الراقصات ياسيدى ! فاحتفظ بالصورة كما

تهوى ، ولكن أرجوك أن ترد الى صورتى . فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور فى مكان واحد .

فكبر الامر على همام ، وأحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها : ان كان لايريحك الا أن تمزقى الصورة فمزقيها . . .

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنها تضمر لصاحبتها ضغينة وهى لم ترها ولم تسمع باسمها ، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة الا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم انها هى الرقية التى كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم فى جسمها والنكد فى عيشها . فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله ايديا تشترك فى تمزيقها

وهكذا أخذت تحاسبه واخذ يحاسبها ، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث اليه ، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثناء غيابها ، ويتعود أن يسألها وان يتحرى حركاتها . . . وفرغ لها فوقع فى روعه أن لايقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد ، وانقلب الجدول الهادىء المنساب رويدا رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الاسد المتحفز ، ولو ظل كما كان جدولا وديعا لصفا واسترسل . أو لانتهى كما ينتهى النهر الى مصبه فى رفق وسخاوة

ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع ، فان الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ، ويسره أن لايزال واجدا فيها كل حين ميدانا جديدا للاستكشاف، ويسره أن يراقب المراة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسربا الى عواطفه ، وترفع من دخائله حجابا وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معا والناس معا والطبيعة معا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنساح الى آفاق

فان وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سببا للسآمة والعزوف لا سببا للشغف والهيام

ان المرأة فى استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدى أولا وآخرا الى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة الى تلك الرهبة ، ثم يرتع فى صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها

وان الرجل فى استكشافه المراة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدى الى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين الفافها وثناياها . فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهى تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به اذا خرجا الى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان ، بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان فى نزهة طويلة ، يشتركان فى مراجعة عمل النهار كلما سكنا الى ظلال الخيمة فى ظلام المساء

كان يراقبها فى نفسها ويراقبها فى نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهى تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهى تلتمس الامان والعزاء ، ويرى الانسانة الفطرية وهى تطيع الغريزة وتلبس « دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها ، ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة،ويرى المرأةالعصرية وهى تتغلب على أمرأة الجيل الغابر فى ميدان ، وتخضع لها وتنهزم أمامها فى ميدان ، ويرى من وراء ذلك جميعه وفى خلال ذلك جميعه المرأة الخالدة التى لاتتحول ولا تتبدل ، والانثى السرمدية التى يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء . ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب الا لانها وجه من وجوه الحماية والجاه

لقد أكبرته كثيرا وهى تسمع الثناء عليه فى مجالس اناس من علية الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة ، ولا يستريحون اليها لو علموها

ولقد أكبرته كثيرا وهى تقرأ له أسفار النوابغ من أساطين الاقدمين وفحول المحدثين الغربيين ، وهو يعقب على ما يسمع بكلمة هنا وكلمة هناك ، ويناقش لها ما يبدو انه حقيق

بالمناقشة . وليست هى من الجهل بحيث يخفى عليها سداد مناقشاته ، وليست هى من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرة وتقليدا كما يفعل العامة الجامدون ، وليست هى من العلم بحيث تفهم أن نوابغ الغرب كائنة ما كانت أقدارهم وبالغا ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح ، بل هى قد نشأتها الاولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم الى مرتبة العصمة والتاليه ، فاذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاها الصغير وحملقت بعينيها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهى تتفرج على منظر طريف . وجال فى قلبها أكبار تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل

الا أن شيئا من ذلك — فى مدى السنوات الطوال — لم ينعشها ولم يلمس كوامن أنوثتها ولم يقدح (١) من سرورها بهوحنينها الى جواره مثل ما نعشها وسرى فيها وتجلى عليها فى حادثة عرضية حدثت ذات مساء فى مركبة من مركبات الاجرة بين الزمالك والجزيرة :

كانت المركبة تسير على مهل والحوذى قد غفل عن اشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس ، فصدمت واحدا من ثلاثة أو أربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل فى محاذاة العوامات والذهبيات ، وذلك جرم من الحوذى تضيق عنه رحمة الله ! فان كل شيء ليجوز للحوذى الغافل الا أن

---

(١) قدحه : اخرج ناره

يصدم السادة « رجال الضبط » وهم هم أصحاب الحول والطول والقول الفصل فى الخيل والمركبات والسيارات والحوذية والساقة ومايحملون ومن يحملون !.. فاذا كان ذلك فى أثناء « تأدية وظيفة » كما يسهل القول والاثبات فويل يومئذ للمسكين ! ثم ويل يومئذ للمسكين ... انه لذاهب من الدار الى النار وماله من شفيع

وقد كان أصاب الغافل الاثيم جزاءه اليسير فى سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان ، فجذبه « رجال الامن » من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مران على هذا الضرب من المصافحات ، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له الا ضربات متداركات تتبارى فيها الألسنة والكفوف

وطال الخصام ولاح لهمام أنه لا يؤذن بختام ... فلم يجد مناصا من النزول والسعى فى الاصلاح . ولم يغب عن باله أن اللجاجة قد تفضى برجل الضبط « المعتدى عليه » الى كتابة محضر واستدعاء شهود ، وأنه سيكون لا محالة واحدا من هؤلاء الشهود . فاذا أفضى الامر الى ذلك فقد كان ينوى أن يعطيهم عنوانه ان قنعوا به ، أو يصاحبهم بعد أن يحتال فى صرف سارة وابعادها عن القضية ما استطاع

على أن المسألة لم تلجىء الى شىء من ذاك ، ولم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين ، فقد كان «رجال الضبط» ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون هماما بالرؤية والسماع وان لم تجمعهم

به صداقة . فتلطف اكبرهم وحيى هماما بلقبه دون اسمه ، واتجه الى الحوذى بعد أن صفعه الصفعة الاخيرة ... واسلمه الرخصة المنزوعة ... وهو يهنئه بالسلامة . اكراما للرجل الذى معه لا اكراما لامه وأبيه اللذين من صفاتهما كيت وكيت ، كما علم قبل ذلك على ما يظهر

لم تكن سارة من السذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة ، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعيى بتدبيرها ان ساءت الجريرة وقد أفهمها همام قبل نزوله من المركبة أن اتقاء المحذور سهل من « الوجهة الرسمية » ... وقد سبق لهما أن تعرضا معا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة فى الضواحى البعيدة رجاء المساومة على ما يحسبونه من الفضائح الغرامية . فنظرت اليهم غير حافلة وتركت هماما يزجرهم وينهرهم ليعلموا أن لا رجاء فى مساومة ولا خوف من فضيحة . فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مأزق مخيف والفزع من عاقبة محذورة ، وانما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهى مغمضة العينين

فلما عاد همام الى المركبة واستوى فى مكانه فيها لم تزد على ان زحفت الى جانبه واستكانت الى جواره وتطامنت فى حضنه تطامن الفرخ فى حضن أبيه ، وهمست تحت أذنه وهى تمسح خدها بخده ما أسعدنى بجوارك سيدى ومولاى ... وكانت تلك أول مرة دعته فيها تلك الدعوة ، وكان ذلك كل

مافاهت به من تعبير عن سرورها وما كانت فى حاجة الى أن تزيد ... فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفرف الشكور غنيا عن كل كلام

وعرف همام انها استكشفته وطبعته فى صفحة المحاكاة عندها بعد فترة وجيزة ، فجعلت تحكيه وتمثله فى ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت ، واعتراضه بالاشارة ، وردوده وهو مشغول ، وردوده وهو حاضر القريحة . وتعقد أحيانا محادثة طويلة بينها وبين نفسها . تتكلم فيها مرة بصوتها وأسلوبها ومرة بصوت همام وأسلوبه ، فتجيد المحاكاة فى اللهجة والتفكير اجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين ، بل يزيدها ملاحة على ملاحة

وانها لقد عرفت منه بزكانة المرأة فى شهر واحد ما لم يعرفه أصدقاؤه وخلطاؤه فى أعوام . فتقول له ان الزوبعة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذى بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقول له : اننى اذا أردت أن اهزمك لم ابرز لك بسلاح ولم البس لك شكة الحرب ، فأقودك من اذنيك

▱

وما زالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان لا يتواريان فى جنة لا ينبت فيها ورق التين . فكان هذا التكاشف سببا ثانيا من أسباب هيام همام ، وقلما ينحصر الهيام فى سببين اثنين !

نعم . فقد كانت لهيامه بها أسباب مختلفات ، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من شتى أسباب لا تتضح لها حدود

فمن تلك الاسباب الواضحة انه كان يحس احساسا شديدا ان توديع هذه العاطفة قد يرادف فى معناه توديع الحياة

لأنه تعلق بها وهو فى العقد الرابع من عمره . فاذا انقطع ما بينه وبينها فمن له بفتاة تخلفها فى مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها ؟ واذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذى يلبى دواعى الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ، ويغامر اليوم فى عاطفة مرجوة وقد كان بالامس فى عاطفة يائسة مضيعة ؟

ان خبت هذه العاطفة فهى جذوة الغرام الاخيرة ، وعليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الاقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفىء فلا يستعيدوها ، قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب

ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة فى أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حبا فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه . ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه . فقصارى القول أنه يتعاطاه ، وان الاقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة

ومن الحق أن نذكر هنا أن الرجل يعشق الانثى فى مبدأ الامر لانها امرأة بعينها : امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التى تتميز بها بين سائر النساء، ولكنه اذا أوغل فى عشقها وانغمس فيه أحبها لانها «المرأة» كلها أو المرأة التى تتمثل فيها الانوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهى تثير فيه كل ما تثيره الانوثة من شعور الحياة . وأى شعور هو بعيد من نفس الانسان فى هذه الحالة ؟ ان الانوثة لتثير فيه شعور القوة ، وشعور الجمال ، وشعور اللذة ، وشعور الألم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن أغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام: لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هى مناط الخلق والتكوين، وأداة التوليد والدوام والخلود ، وهى مظهر القوة التى بيديها كل شىء فى الوجود وكل شىء فى الانسان

▱

وكذلك تجمعت أسباب الهيام من ألفة الى متعة الى تفاهم الى اتفاق فى أمور ، الى اختلاف فى أمور غيرها ، حتى استحكمت أواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة . فلما انشأ يحاسبها على حقوق الوفاء ، ويتقاضاها أمانة الاخلاص ، لم يكن ذلك غلوا منه فى تنزيه العصمة الانسانية ولا غلوا منه فى تنزيه عصمتها ، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لانه حتم لا مندوحة له عنه ، ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها

والا فماذا هو صانع ! ايفارقها ؟ ذلك عسير !

أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحـده ؟ ليس ذلك بيسير !

وهكذا يتفق أن يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة ، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين .


حبان

. اذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب

اذا أصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة ، فذلك هو الحب

اذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء ، ، ولا لأنها أذكى النساء ، ولا لأنها أوفى النساء ولا لأنها أولى النساء بالحب ، ولكن لأنها هي هي بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب

وقد يميز الرجل امرأتين في وقت واحد • لكن لابد من اختلاف بين الحبين فى النوع ، أو فى الدرجة ، أو فى الرجاء

فيكون أحد الحبين خالصا للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر مستفرقا شاملا للروحين والجسدين

أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر آخذا فى الادبار والهبوط

أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر مشوبا باليأس والريبة

أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد فى وقت واحد فذلك ازدواج غير معهود فى الطباع • لأن العاطفة لا تقف دون المدى ولا تعرف الحدود ، واذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها !

وقد كان همام يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة في بيت ماريانا : يحبها الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيرا مايتراسلان أو يتحدثان ، وكثيرا ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل ايثارا للتقية واجتنابا للقال والقيل وتهدئة من جماح العاطفة اذا خافا عليها الانقطاع . ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالانسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الاغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الاوراق الى تلك الاوراق ..

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ، ولا يزيدان

وكان يغازلها فتومىء اليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فاذا نظر الى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة الى مقام النشوز

وكان يكتب اليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والامل ، فاذا لقيها بعد ذلك لم ير منها ما ينم على استياء ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وانما يسمع الجواب باللحن والايماء دون الاعراب والافصاح

وربما تواعدا الى جلسة من جلسات الصور المتحركة فى مكان لا غبار عليه ، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها ، ويسهبان ما احتملت الكناية الاسهاب . ثم يغيران سياق الحديث فى غير اقتضاب ولا ابتسار

وكانا أشبه بالنجمين السيارين فى المنظومة الواحـــدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد ، ويتجاذبان حول محور واحد، ولكنهما يحذران التقارب ... لأنه اصطدام !

ولم تكن هند ـ وليكن اسمها هندا ـ لتعتقد الرهبانية فى همام ، ولا لتزعم بينها وبين وجـــدانها أنه معزول عن عالم النساء • غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما داماسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة،وشبح غرام واحد . فان اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى ، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده الى امرأة لها شأن غير شؤون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غــرة فى مكتب عمله ، وهى الزيارة الاولى والاخيرة من قبيلها ، ولم يكن لهـا مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع الحديث فى التليفون • فما شك لحظة فى غرض الزيارة ولا فى باعثهـا ، وتوقع منها عتبا عنيفا على أسلوبها فى التعبير الصامت المبين ، ولكنه علم سلفا أنها غير منصفة فى عتبها ، لأنه لم يختلس منها شيئا هو من حقها عليه . فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقبا ••• فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

ـ لست زائرة ولا سائلة !

قال : اذن ...

ولم يتمها لانها نظـرت اليــه كمن يستحلفــه أن لا يتكلم • وانحدرت من عينيها دمعتان

فما تمالك نفسه أن تناول يدها ورفعها الى فمه يقبلهاويعيد تقبيلها ، فمانعته ولم تكفف عن النظر اليه • ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة : وهى تتمتم هامسة : دع يدى • ودعنى ! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع .

لو جاءت هذه الزيارة وهمام فى بداية العلاقة بسارة لما كان بعيدا أن تقضى على تلك العلاقة ، وأن ترد سارة اسما مغمورا فى عامة عنوان النساء

بيدأنها جاءت وقدأوغلت العلاقة بينهما ايغالها الذىلاتراجع فيه،وصمدت على طريقها تعدو مع الايام عدوا لاتنظر فيه الى الوراء • وفسح لها الطريق ان هماما لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضمير • لانه لم يخن هندا ولم يقصر فى حقها عليه ، ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الانوثة متناقضين : كلتاهما أنثى حقا لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى احداهما أنتحل محل الثانية، ويوشك أن تزدريها

ماذا أقول ؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبسا من طبيعة الاخرى ، لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها ، فتسمح للتمنى أن يستحيل الى نفور

فاذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد

خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة الى الدير !!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت،وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر

الحزن الرفيع والالم العزيز شفاعة عند هند مقبولة اذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة . أما عند سارة فالشفاعة الاولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم

تلك تشكو ويخيل اليك أنها ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكى الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه من الحلوى

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضرالخجل والمسبة، وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديما فى حاشية أمير مفراح

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال فى هند كالحصن الذى يحيط به الخندق . أما الجمال فى سارة فكالبستان الذى يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون

البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور

تلك ذات طموح وهمم ، وهذه تحسب الواقع الذى يوائمها خيرا وأشهى من كل مطمع ومن كل همة

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية ، لكن ثقافة هند الى المعرفة ، وثقافة سارة الى الفطرة

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الانسان أيهما أقوم فى السجايا والاخلاق . ولكن الذى لا ريب فيه ولا حيرة فيه أن سارة أرجح وأصلح قبل أن ينزل التكليف على أبناء آدم وحواء، وأن هندا أرجح وأصلح حيثما نزل تكليف ... أى تكليف !

▱

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة الا هاتين الصورتين المتقابلتين : احداهما قائمة فى محراب ، والاخرى باثقة كالزهرة من زبد العباب ..! وتعاقبت الايام فأصبحت احداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الاخرى كما كانت تمثالا من لحم ودم

▱

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند الا أن هماما يعرفها ويكبرها ويزورها حينا بعد حين . فكانت تتبرم بهذه الزيارات، ثم كانت تتوخى أن تغويه وتشغله فى اليوم الذى يختاره لزيارة هند ... فيؤجل الموعد لانه لم يكن فى الحقيقة بموعد ، ولان

البعد يمنع الاتصال بسارة وما عندها من سرور ، ولكنه لايمنع الاتصال بهند فى ذلك اليوم ، وفى كل يوم

وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدرى تارة ولا يدرى تارة أخرى ، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل ، أو أصبحت على الاصح ممزوجة بكل شاغل • فبعد أن كانت فى بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة ان حضرت ، وتغيب فيغنى عنهـــا من حضر ـ عادت وهى الواحدة وحدها لا يغنى عنها سواها . وعاد همام ينظر الى النساء فى الطرقات ويوشك أن يسأل جدا وصدقا : ما بال هؤلاء ؟ ولماذا خلقن ؟ ومن ذا الذى ينظر اليهن ؟



لماذا أشك فيها؟

اثنان لا يشكان فى المرأة التى يحبانها ، وباب الشك فيها مغلق عندهما :

شاب فى مقتبل أيامه ، مخدوع فى أحلامه ، مؤمن بقداسة الحبيبة على منــوال عصــور الفروسية . يرتفع بها الى سماء الطهر ، ويكبرها أن تخون ويكبر نفسـه فى الحقيقة أن يخــان ! ويسمع منها انها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده أنه يسمع كلاما يحتمل الصدق والكذب ، ويجوز فيــه الغلو والتزويق • ويتعاهدان على دوام الصفاء بقيــة العمر كله فلا يخيل اليه أنهما يتعاهدان على مســتحيل . لانه يتمنى ، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى أن يكون

والآخر رجل مطموس البصــيرة مملوء الخياشيم بالغـــرور والدعوى ، يؤتى اليه انه حسب المرأة من أمنية ومطمع ، فلا منصرف لها عنه ، ولا معدى لها الى غيره • والا فماذا عساها أن تبغى عند غيره ؟ انه رضى النساء من جمال واعتدال وقوة ومال • فاذا قنعت به فما هى بمظلومة ، وان لم تقنع به انها اذن لظالمة !

حسن ! ولكن ألا يحدث فى الدنيا أن تكون المرأة ظالمة ؟

كلا !! لان ذلك لا يسره !! وكفى أن لا يسره شىء من الاشياء حتى لا يكون ولا يجوز أن يكون !

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك

لم يكن شابا فى مقتبـــل أيامه ، لانه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد الى الاربعين

ولم يكن مخدوعا بهذا الضرب من الغرور ، لانه موكول الى ضروب أخرى من غرور النفوس ، مطبوع على أن لا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى انسان من النساء ، أو من الرجال

وكان قد خبر من أحوال المرأة والرجل ماأقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان . فما من رجل كبر أو صغر الا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه فى جميع نواحيه أو بعض نواحيه : أن كان محبوبا ففى الرجال من هو أحب ، وان كان مهيبا ففى الرجال من هو أهيب ، وان كان جميلا أو سريا أو قويا ففى الرجال من هو أجمل وأسرى وأقوى . ولقد تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، فليس من الضرورى أن تفاضل المرأة بين الحسن والأحسن والصـــالح والاصلح ، وليس من الضرورى ــ ان هى فاضلت ــ أن تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ . فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم الى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق، كما يذهب الانســـان الى غدائه فيلقـــاه مطعم يفغم أنفه ببعض روائحه فيميل اليه ، وقد يعافه فى غير تلك الساعة

وكان همام يعتقد أن الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب ، يعضعضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود اليها وان شبع جوفه من اللبن واللحم والاغذية المشتهاة . لان الوفا

من السنين قد ربت أسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكيه فى القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة الى أكلها

وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهى تخاف وتحتال وتراوغ وترائى وتلعب بمواطن الضعف فى الرجل حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت فى طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذا به وشحذا للاسنان القديمة التى نبتت عليه • ويسرهن أن يصنعن الشىء ويخفيهن ولو لم تكن بهن حاجة الى صنعه ولا اخفائه • لان المرأة من هؤلاء تشتهى العظمة بجوع عشرين ألف سنة ، وتشتهى اللحم واللبن بجوع ساعات .

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره ؟ ولم يصعب عليه أن ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره أن يناله ؟

انه لم يكن يستبعد الغش والخيانة ، وليس بين الشىء الذى لا يستبعد والشىء الذى يتوقع الا خطوة وعلامة محسوسة

على أن الانسان قد يتوقع الغش لفرط اشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه

فالخزانة التى تتركها فارغة هى بعينها الخزانة التى تملؤها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة ، لكنك تخشى على متانتها وهى حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهى فارغة منسية

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه أم حنون وزوجة قالية ، فاذا تأخر عن موعد الاياب فأول ما يخطر على

بال الأم ان ابنها قد أصابه مكروه ، وأول ما يخطر على بال الزوجة أن زوجها يعبث ويعربد ، ولا يمكن أن يكون الرجل الواحد رجلين فى الرشد والحصافة والقدرة على دفع الاخطار ، وانما اختلف التوقع باختلاف الشعور والخشية . فتتوقع الام المكروه لانها تخشى المكروه ولا تبالى سواه ، وتتوقع الزوجة العربدة لانها تخشى العربدة ولا تبالى سواها ، ولا يسوؤها أن يصاب زوجها البغيض كما يسوؤها أن يصيبها فى غيرتها وكرامتها الزوجية

لهذا أصبح همام يحذر الخيانة حين أصبحت هذه الخيانة شيئا يهمه ويشغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها، ولم يكبح خواطره عن التمادى فى الظلم لانه علم أن ضمان العدل موجود لا يغفل !! وضمان العدل أن سارة عزيزة عليه ، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنيا عليهاومطاوعة لوهمعارض أو شبهة طفيفة ، وما هو بقادر على التفريط الا وقد أصبح وأمسى وليس له عن التفريط محيد .

خذوا أسرارهم من صغارهم ... وسر « سارة » انما طرق مسامع همام ـ أول ما طرقها ـ من لسان طفلها الصغير

كانا يتنزهان يوما فى أرباض القاهرة ومعها طفلها الصغير ، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان ... ثم اتجه ـ طفرة أيضا ـ نحو أمه وهو لا يدرى ماذا يصنع ، فاتخذ منها موقف العاشق المدله وجعل يفوه بألفاظ

من عبارات المناجاة والغزل والتحبب والتدليل لا تسمع الا بين عاشقين فى خلوة غرام ، وانطلق يرصها رصا كأنما يتلقاها من ملقن أو يتلوها من كتاب ، فصحا همام من حلمه الذى كان سادرا فيه على مهل وتكاسل كأنه لم يتبين بعدمعنى ما يسمع. وأسرعت هى فانتهرت الطفل انتهارا شديدا وعنفت عليه وهى تبالغ فى نهيه أن يسترسل فى تمثيل دوره ، وأرادت أن توقع فى روع همام بغير اكتراث ظاهر أنها انما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذى يسرده لا لانها تكتم سرا يوشك أن يفضحه بثرثرته وهذره . فقالت : تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة ... ما أدرى والله ماذا أصنع بهذا الطفل فى سنه الصغيرة ، فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن انداده وأترابه ، ولا هو يسلم من معاشرة هؤلاء الانداد والاتراب !

قال همام : ولكنك تعرفين أنداده وأترابه ، فمن منهم تحسبينه خليقا أن يعيد على مسمعه تلك العبارات ؟

قالت : ومن أين لى أن أعلم ؟ فقد يسمعونه من خادمة أو خادم فى أكنان الحدائق وزوايا الطريق

قال : أو هذا كلام خدم ؟ ان الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال !

فسكتت وسكت ، وما فى ذهنه ذرة من الشك فى أن بعضا من ذلك الكلام الذى لغط به الطفل قد صدر من أمه ... لانه كلامها ، فكيف تسرب اليه ؟ ومن أين ؟

أن هماما ليذكر جد الذكر انهما لا يتخاطبان فى محضر الطفل

الا كما يتخاطب الرجل والمرأة فى المجلس المشهود ، وليس لسارة زوج يعيش معها ، وليس من عادة الازواج مع هذا أن يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الاطفال الصغار ، فمن أين تسربت اليه المناجاة بطرفيها ؟ من أين ؟ نعم من أين ؟!

واقترنت تلك الظاهرة فى حينها بظواهر مريبة مثلها . . . « فماريانا » التى كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد أصبحت مأمونة الجانب مفشية الدار حتى لا حذر من التواعد لديها على غير ضرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها فى غير أيامها ؟ ونوازع الغرائز التى لا سلطان عليها للمرأة ما بالها تتبدل ؟ ووسائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب تلطف الآثم الذى يمسح حوبته بفرط المجاملة ويكفر عن خيانته الباطنة بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءها وماذا فى أطوائها ؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضى فى قضائه بالادانة ولكنها كافية للتشكيك فى خلوص النية

والقضاء بعد مطالب باقناع غيره محظور عليه أن يكتفى باقناع نفسه ... أما الرجل الذى ينشد الطمأنينة مع المرأة فلمن يحكم ان لم يحكم لنفسه ؟ وبأى اقتناع يدين ان لم يدن باقتناعه ؟

وراء الأكمة ما وراءها ... تلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ماذا وراءها ؟ قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل ، ولكن ألا يكفى أن تكون هناك أكمة وأن يكون هناك شىء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين ، ويكدر الجو بين الصفيين ؟

وجائز عند همام ان تنصرف عنه سارة الى غيره • ولكن ليس بالجائز عنده أن تستغفله لانها تتوهم فى دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره !

جائز أن يكون هو وهى ألعوبة واحدة فى يد الطبيعة التى تسوقه وتسوقها ، ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة فى يدها وأن تكون هى اللاعبة بلبه وولائه !

وقد نصب لقلبها الميزان الذى نصبه لقلبه فى السروالعلانية وأخذ عليها شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ،واتهمها فلم يشاهد عليها عذاب المرأة التى تفجع فى حب تقابله بحب مثله بل كان كل ما شاهده عليها محال المتهم الذى يجهد فى تفنيد تهمة ، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الأدلة الدامغة

هل ظلمها ؟

يجوز ••• !

وكلما أعاد همام هذا السؤال وأعاد معه هذا الجواب لمس به أغوار فتنتها واعتقد انه يخدع عقله باختياره ، ويساعدها على تضليل حسه ورأيه ، وأنه لم يظلمها ولا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كانت شبهة أهون من هاتيك الشبهات كافيـــة كل الكفاية للبت فى أمرها وطى السؤال والجواب عنها

وخير له أن يفارقها بغير جريرة قادرا على آلام فراقها صائما عن مسراتها ، من أن يعـــاشرها عاجزا عن فراقهـــا ، باذلا كل ما عنده من اهتمام،مستحقا كل ما عندها من احتقار واستغفال

لقد سلبته الطمأنينة وكفى !

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتى !

أى نعم . انتهت المهمة ، وبطلت الرقابة ، واستراح الرقيب!

وكان « أمين » موفقا فى هذه المرة كل التوفيق ، لانه زود هماما بالحجة القاطعة التى يواجه بها غوايته ويقمع بها نكسات ضعفه ، كلما ساوره الندم وعزت عليه السلوى

ولم تأت هذه الحجة الا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير، وجهد غير قليل

ولكن علام الرقابة بعد القطيعة ؟ الم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة ؟ ألم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة ؟ ألم يعول كل التعويل على أن يظن أسوأ الظنون . ويفرض اشنع الفروض ، ويوطن عزيمته على خيانتها ولا يغالط وهمه فى شأنها ولو تفتحت له أبواب المغالطة ؟

بلى كان ذلك !

غير أنها كانت أحلاما ، ولم تصح الاحلام الا بضعة أيام

وقد صحت الاحلام فى الايام الاولى بعد القطيعة حتى ظن همام أنه قد سلا ، واستقر على السلوى ، فما يبالى بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوى

على أنها كانت راحة موقوتة أشبه براحة اللديغ الساهد حين

ينقلب من جنب الى جنب ، وما به من نوم ولا غفوة على هـــذا الجنب ولا على ذاك

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة الى شيء آخـر : الى شيء غير الراحة وغير السلوى ، الى الشعور القاصم بالفراغ ، والحرج والضيق ونفاد الحيلة كلها فى ذلك الفراغ

كل حاسة من حواسه فقدت شيئا ، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئا ، وكل مكان يغشاه فقد شيئا ، وكـل سرور من مسراته أو كل ألم من آلامه فقد معنـاه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعا ؟!. . عوضها نقيضها الذى يلغيها ولاينوب عنها، فأما غم محبوس كظيم ، واما حيرة عمياء ليس لها اتجاه ، واما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل أولئك فى فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار

خوى الجحيم الحى وهبط فى مكانه الزمهرير الميت ، وبئس هذا الموت وبئست تلك الحياة

زمهرير لا يعيش فيه الاحيـــاء ، ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب ، فلهذا يعيش فيه من يعيش من الاحياء !

وجرب السلوى ، وما خامره الشك فى أنها علاج مطلوب ، وانها علاج مستطاع

ولم لا يكون مستطاعا أن يسلو الرجل امرأة بامرأة مثلهـا أو أفضل منها ؟ الا يسلو الجائع عن صفحة من الطعام بصفحة مثلها أو أشهى منها ؟ فلماذا يعييه أن يسلو عن هذه المـرأة بغيرها من بنات حواء ؟

ونسى همام انه ليس بجائع وانما هوعليل مسلوب الاشتهاء ... فمن حاجته قبل أن ينظر في انتقاء طعامه أن يعيد ذوقه الى اعتداله وأن يجد اللذة فيما يشتهيه ، ويستوى عنده قبل ذلك أطيب الطعام وأخبث الطعام ، كما يستوى الاكل والصيام

بل نسى أن الرجل حين يحب المرأة فانما يريدها هى ولا يريد ماهو أجمل منها ، وانما يحسها ويحس بها لانها هى هى لا لانها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء

وكالنظارة التى تجلو العين لانها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذى عاشرها وألف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل «مخصوص» لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارةالتى هىأبعد أمدا وأنفس زجاجا تغنى العين التى تنظر بما دونها ، ولا المرأة التى هى اجمل طلعة وأكرم سليقة تغنى القلب الذى تعود أن يخفق لها أو يخفق معها

لا بل تكون التسلية هنا أحجى بأن تنكأ الجرح وتضاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمرأة المجهولة تغنى عن المرأة المجهولة لانك لا تعرف لها صفة تنكرها عند أختها ... أما المرأة التى « تشخصت »فى حسك كل صفة منصفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون أن تشعر فى كل لمحة وكل لمسة أن لها وجها غير وجه فلانة ، وعينا غير عينها ، وصوتا غير صوتها ، وقواما غير قوامها ، وأعطافا غيرأعطافها ، وروحا غير روحها وكلاما غير كلامها ؟

وكيف تشعر بذلك دون أن تنقلب التسلية غصة ، ودون أن ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد ؟

كلا ! لا تسلية عن « النظارة » المضبوطة بنظارة أنفس منها وأقدر على التقريب والتوضيح

ولا تسلية عن الابن الضائع بابن من صلب غيرك ولا من صلبك ، ولو كان أبر الابناء الذين ولد الآباء ، ولا تسلية عن المرأة المعشوقة بامرأة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء ، وتبذها عندك وعند غيرك فى بعض الخصال ولا فى جميع الخصال

وفى الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلا بد للقلب من فترة طويلة أو قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه ، أو يعاف الطير كل أليف غير أليفه ، أو يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين أمه وأبيه

▱

فى هذه الفترة عاد « أمين » الى القاهرة فى اجازة طويلة . ورأى من الأمسية الاولى التى قضاها مع همام أين تقف الامور كما يقول ، بغير حاجة الى افاضة شرح واطالة سؤال

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة ، والوقت ثقيل كسيح لا يخف ولا يتحرك ! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث أن تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق ، فالقراءة لا تنفع ، واللعب لا يمنع الذهن أن يشرد ويتيه ، والسماع لا يطاق ، والرياضة مطلوبة مستحبة

على أن تكون في غير الاماكن التى كان يطرقها همام وسارة • وهل من مكان لم يطرقاه ؟

وكثر التحدث عن الجنون والمجانين وبوادرالهوى التى تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم أصحابهم المقربون • فكان همام يقول : ما أحسب الا أنني سأكون بين الناس فى بعض الايام فأخلط بالحديث عن سارةوظنون سارة ! ثم يسأل أمينا: ترى كيف تقع هذه المفاجأة فى فلان وفلان ؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان ؟

ثم يأخذان فى التمثيل والمحاكاة كأنهما يتلهيان ويتفكهان ، وانهما لفى مرارة سقيمة تفسد جميع الطعوم !

هذا أو يعمد أمين الى فنون من الالاعيب الصبيانية ينفى بها الملل ويموه بها الكآبة • فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود أو غير المقصود • فيجرى بينهما حديث كهذا الحديث :

ـ هل أنت فلان ؟

ـ نعم أنا هو

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

ـ عجبا • ما معنى هذا السؤال ؟

ـ عفوا يا سيدى عفوا • • • انما أردت أن أتحقق من صواب عاملات التليفون • فهل عندك الرقم المطلوب بعينه ؟

ـ نعم يا سيدى • هل من خدمة ؟

ـ بل سؤال صغير ان سمحت !

ـ تفضل

ـ أرجو أن تجيبنى ولا تستغرب • هل قرأت صهاريج اللؤلؤ ؟

ـ صهاريج اللؤلؤ ؟ ما هذا ؟

ـ أى نعم صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى • ظننتك قد سمعت به ••• أما سمعت به ؟ أما قرأته ؟

ـ بلى قرأته • فما هذه الاسئلة العجيبة ؟

ـ اذن تقرؤه مرة ثانية !

ثم يلقى السماعة ، ويمضى فى تخيل فلان هذا وهو يغضب ويصخب ، وينعى على مصر والمصريين هذه الفصول آلتى لاتحدث فى باريس ولا لندن ولا برلين !

صبيانيات من هذا القبيل تشغل الوقت ويندر جدا أن تغصب هماما على ضحكة أو ابتسامة ، الى أن كانت ليلة من هذه الليالى المتشابهات طال فيها السأم ونزر فيها الكلام ورانت فيها الكآبة فقال أمين : ما الرأى فى استئناف الرقابة !

ولعله قالها لفتح باب من أبواب السمر ، أو لعله قالها لدفع السآمة ، أو لعله قالها شوقا الى اتمام عمل بدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغير نتيجة ••• الا أن هماما رحب باقتراحه وحاول أن يجد فى معارضته كى يمهد لامين طريق التراجع ان كان قد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجية للوقت وجذبا لاطراف الحديث ، فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه الا الموافقة ، وهو لا يدرى من فائدة لاستئناف الرقابة الأنه عمل لن يزيده تعبا على تعبه ، وقد يريح

وبدأت الرقابة بكرة وقد تدرب عليها أمين من جهة وتهيأت دواعيها من جهة أخرى ، وعاونتها المصادفات من جهة ثالثة فنجحت بعد محاولة طويلة نجاحا كان جديرا بعناء المحاولة،لانه أراح هماما وأراح أمينا وصوب الضربة الى رأس الاوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعا يتكلف الحزن والاسف تكلف الناعى الذى ينقل أخبار الوفاة الى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور

قال همام : خير

قال أمين : خير ، كل الخير

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السعيد المشئوم لصاح صيحة « ارخميد » ··· : وجدتها · وجدتها !!·· وحق له أن يصيح ، فقد كان يمتحن زيفا دقيقا لا يقل عن الزيف الذى امتحنه الرياضى العظيم !

وسرد القصة بتفصيلاتها عملا بالوصية الاولى ، وان لم يكن همام بالحريص فى هذه المرة على التفصيلات ، بعد أن نجحت الرقابة وظهرت النتيجة

وفحوى القصة أنه تبع سارة منمنزلها حتىنزلت فى ميدان بابالحديد·فمشت أمام ومشتوراء ، ودارت بعينيها فيما حولها تروز الطريق وتتوقى الانظار ، فأطل رجل من سيارة كانت واقفة بالانتظار وأشاراليها·فانفتلت الى السيارة فى سرعة البرق ، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه

قال همام : وهل تبعت السيارة ؟

قال أمين : لا • فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى

قال همام مستضحكا جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسرى عنه ندامة هذا الفشل الصغير ، ويسره بنتيجة تعبه :

ـ أحسنت يا سيد أمين ، أحسنت ! قد وصلنا • وصلنا وان لم نصل الى باب الدار • فاستمر على بركة كيوبيد

وانقضت أيام فى مثـــل حالة المفجوعين الذين اطمأنوا الى موت فقيدهم فى ديار الغربة ولم يبق الا أن تصل الجثـة الى مقرها الاخير بعد سنوات من وقوع المصاب : لا حدة ولا حداد ولا حرارة فى الانتظار • بل مسايرة للايام والحـــوادث الى أن تنتهى حيث يروقها الانتهاء

ففى بعض هذه الايام كان همام يركب الترام قبل الموعـد بنحو الساعة الى حيث يلقى أمينا ـ عشاء كل يوم ـ بعد رحلته اليومية المعهودة • فاذا بأمين يقفز الى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة

فنسى همام ما كانا فيه ولم يذكر الا نوادر أمين فى الخوف من ركوب الترام والنزول منه وهو سائر • فليس أظـرف من سهواته المحفوظة الا نوادره فى خوف الترام والمركبات والزوارق وكل ما يسير ويخشى من سيره الهلاك • فقـد ولع به أصحابه من جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه

فما أقلع ٠٠٠ وآخر نوادره فى هذا الباب كان فى خلال ذلك الاسبوع ، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيوان وهم يوهمونه انهم سيركبون الترام الذى يهم بالمسير ، ويتباطؤون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر ٠ فأسرع قبلهم ليدركه قبل أن يتحرك ٠ فتركوه ووقفوا ينظرون اليه وينظر اليهم وهو لا يجسر على النزول !

وأبى أمين أن يقنع بهذا فى أضاحيك يوم، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته : مضى مع الترام الى آخر الخط ثم قضى فى البحث عن أصحابه بقية الظهيرة ، وقد كان فى وسعه أن ينزل فى المحطة التالية ويركب معهم القطار الذى ركبوه ٠٠ ولكن الرجل سخى بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب !

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التى ما رآها قط ولا توقعها ٠٠٠ وعلم أن أمرا خطيرا لابد قد جرى فى الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة النادرة ، بل تلك القفزة المقطوعة النظير ! ولا شك أن الضحك الذى سرى تلك الساعة الى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وثيرة نسجتها المقادير ليتاقى عليها الخبر المشئوم الميمون، المترقب بنافد الصبر ونافد الحيلة منذ شهور ، وقد كان له شأن أى شأن فى تهوين المسألة كلها وتلطيفها وافراغها فى مرحلتها الاخيرة فى قالب السخر والفكاهة

فلما جلس أمين الى جانب همام لم ينتظر سؤالا ولم يأبه للضحك الذى كان يلوح على عينى همام، وقال فى رصانة وتؤدة:
انتهت مهمتى

قال همام : لا ريب في ذلك • فان قفزتك وحدها لدليل أقوى من كل دليل • فأوجز يا صاح • أوجز ولا ضرورة للتفصيل

قال أمين : الآن هى فى مخدع مريب فى بيت قريب ، تبعتها اليه وعرفته وعرفت اسم صاحبه الذى يستأجره ، وعرفت أنها تغشاه من حين الى حين

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة • أغمضهما كأنه يتحاشى النظر الى سبة شائنة ، أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل فى ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليه • ثم أسرع فصافح أمينا وهز يده هزة الشكر والرضى والابتهاج ، وقال له : صدقت صدقت، لقد انتهت المهمة ، فهلم نحتفل بتشييعها!

ونشط كلاهما نشاطا لم يدريا ماذا يصنعان به وكيف يجريانه فى مجراه ، فانطلقا الى أطراف المدينة يمشيان بل يغذان السير على غير هدى ، وطفقا يطوفان ويعودان الى حيث كانا حتى صادفا اثنين من أصحابهما الادباء يلتمسان السهر ولا يتفقان على مكان ، فانساقوا جميعا الى ناد متطرف على هامش الصحراء ، وكانت الليلة مقمرة والجو رائقا والسيارات ذاهبة آيبة فى خفة وطرب واشتياق

ويتم التوفيق فيكون أحد الاديبين صاحبنا الذى كان أمين يختلق له الاسئلة فى التليفون ، ويتم التوفيق مرة أخرى فيجرى الحديث فى الادب وفى النثر البليغ وفى صهاريج اللؤلؤ أى نعم فى صهاريج اللؤلؤ بعينها ، ويقول صاحبنا : لقد

قرأته مرتين ! ويوشك أمين وهمام أن يسألا : أكان ذلك بعد نصيحة التليفون ؟ ولكنهما يكتفيان بالايماء ويحبسان الضحك، ويضيفانه الى حساب السرور الخفى الذى يحتويانه منفردين

فيم كان ذلك السرور ؟

لعله كان سرورا بتقليم مخالب العذاب التى كانت تنوشه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها

لعله كان سرور الرضى بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك

ولعله كان سرور القدرة على التفريط فى سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجة من ندم .. أو لم تعد امرأة من النساء بعد أن كانت ، المرأة « المخصوصة » بعاشق واحد دون سائر الرجال ؟ ألم تنقشع عنها سرابيل الحب الأثير التى كانت تغليها وتعلو بها فى ضمير همام ؟ ألم يسقط عنها «سحر» الانفراد الذى جعلها محبوبة لا تغنى عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء ؟

بلى ! كان ذلك أكبر ما سر هماما فى تلك الليلة بما سمع من « بشارة » أمين ، وظل على سروره هذا أياما يترشفه ويكرع منه ولا يروى منه بالجرعة والجرعتين ، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه ، فلم يرنقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم ، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيسا باقيا الا حين انقضت اجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب الى عمله ، فقد كانا معا كالسائحين فى طريق واحد معروف المعالم والانحاء لهما على السواء ، فلما افترقا أحس همام

كأنه قد ضل الطريق ، وألح عليه هذا الاحساس المبهم بضعة أيام ، ثم تراجع رويدا رويدا الى رضوان صحيح ، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح

الا أن كيوبيـد شيطان مريد له لؤم الشـياطين ونزغاتهم ومكائدهم وكراهتهم أن يتركوا النـاس هادئين وادعين ، فمن حين الى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس في صدره ليسلبه ارتياحه الى فراق سارة وقدرته على تناسيها ، فلا يفتأ يعاوده أبدا بهذا السؤال :

أليس من الجائز أنها وفت لك فى أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك اياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟!...



محتويات الكتاب

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصريه ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,
The Cine Travel Co,
P.O Box 1863,
ACCRA, GHANA

هذا الكتاب

الحب من العواطف الانسانية النبيلة التى تناولها الكتاب على مر العصور ، وهو موضوع دائم الجده ، مادامت الطبيعة الانسانية دائمة الجدة . وفى هذه القصة يعالج الكاتب موضوع الحب من نواح نفسية وأدبية ، ويسبح بالقارىء فى آفاق العواطف الانسانية المتلاطمة ، ويصور صراعها ، ويبرز الغيرة والشك ــ وهما العاطفتين اللتين تتربصان بالحب ــ فى اطار جديد فريد . فهذه فى الواقع ليست مجرد قصة ، وانما هى دراسة فلسفية واجتماعية وعاطفية للحب

ويسر سلسلة ((كتاب الهلال)) ان تقدم لقرائها هذه التحفة الفريدة ((سارة)) بقلم الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ، فى طبعة جديدة أنيقة ، تضم ــ لاول مرة ــ صورة بديعة رائعة لبطلة هذه القصة الفريدة